الرحلة إلى فينا

فى الحادى والعشرين من ابريل عام ١٨٢٩ ، وفى أمسية من أمسيات الربيع الباسم شهد « شوبان » حفلا موسيقيا بدار الأوبرا فى وارسو ، فهز مشاعره شدو مغنية رخيمة الصوت ، وكانت فتاة جميلة الطلعة ، ذات شعر أشقر ، قسيمة وسيمة ، جذابة فاتنة . تلك هى كونستانتيا جلادكوفسكا (Constantia Gladkowska) التى ما تزال طالبة بمعهد الموسيقى بوارسو ، والتى كان مولدها فى العاشر من يونيه عام ١٨١٠ .

وهنا ، ولأول مرة ، يمس الحب بجناحه الرقيق قلب الفنان الشاب الذى كان حتى اليوم مغلقا ، لم تجش به عاطفة لغير الموسيقى ، حتى وقع نظره على « كونستانتيا » فأدانته بصوتها الشجى ومنظرها الفاتن أول قطرة من كأس غرام بدأ فى قلبه كما تبدأ البذرة عند غرسها . ولكن هذا الحب الأول طغت عليه عاطفة الفن فبقى مكبوتا الى حين ، وانتصرت عليه شواغل الدراسة حتى يتاح له أن يظهر مرة أخرى ، متوقد النار ، مشبوب الأوار .

وفى الرابع والعشرين من مايو من هذا العام نفسه بدأت مراسيم تتويج القيصر « نيقولاس » الأول ملكا على بولونيا . وكان « پجانينى » ملك العزف بالكمان قد حضر قبل هذا التاريخ ، فأحيا عشر حفلات موسيقية فيما بين الثالث والعشرين من مايو والتاسع عشر من يوليه عام ١٨٢٩ . وكان استماع « شوبان » الى

« پجانينى » أبهج الى نفسه وأروح لقلبه من كل ما سمع • ورأى فى حفلات التتويج المليئة بالمباهج والمفاتن وبروعة الفن وصفوة الفنانين ونفرا غير قليل من أعلام الموسيقيين • وقد رأى فى « پجانينى » مهارة منقطعة النظير أكدت له ما كانت تتهامس به خواطر نفسه من أن وارسو أضيق من أن تتسع لآماله العالية وطموحه البعيد فيما يصبو اليه من جلال شهرة وذيع صيت ، مما جعله دائم التطلع والاستشراف الى أفق أوسع فى بلاد أكبر •

وكأنما أرسلت اليه كمان « پجانينى » من صداها صوت اليقظة الروحية التى بعثت الآمال من مكمنها للخروج من نطاق وارسو المحدود الى عالم الفن الملىء بكل ما يشبع رغباته الظامئة الى كل جديد مبتكر •••

وهكذا غادر « شوبان » وارسو فى يوليه عام ١٨٢٩ قاصدا ڤينا بفضل ما أمده به والده من مال اقتصده من نفقاته وبذله فى غير ضن ولا بخل ، ليتيح لفلذة كبده هذا أن يحقق مراميه ويبلغ من الآمال ما يريد بلوغه •

وكان أول من تعرف اليه فى ڤينا هاسلنجر « Haslinger » الناشر الموسيقى الذى استقبله استقبالا حارا ، ولقبه بنجم الشمال الجديد • ولكن « شوبان » ولما يكتمل من حياته عشرين ربيعا لم يكن ليؤمن بهذا التقدير • أو لعله ظن بتواضعه أنه مبالغ فيه • ولو قد تملكه الزهو والاعجاب بنفسه لكان له عاذر من الشباب ومسوغ من مادة نبوغه وعبقريته • ولكن تشاء الأقدار أن لا نرى

التواضع كاملا الا فيمن كملت مواهبهم وأن لا نرى التصلف والخيلاء الا ممن نقصت مادتهم وخلا وطابهم فاحتاجوا الى تكميل نقصهم بالكبرياء ، وتغطية نواحى الضعف بالغرور والزهو ...

وتعرف « شوبان » أيضا بالنبيل جالنبرج «Gallenberg» مدير مسرح « كارتنر » الذى يعد من أكبر مسارح العاصمة . وقد شجعه على أن يظهر أمام الجمهور فى حفل عام ، على أن يكون ظهوره فيه هو كل مكافأته وأجره . وقد أوضح ذلك « شوبان » فى بعض كتاباته حين قال :

« ان النبيل جالنبرج كان يرحب بذلك كل الترحيب ، ولم لا ودخل الحفل لن يكون الا لحسابه ... أما أنا فقد أوضحت أننى أعزف لارضاء هوايتى الموسيقية » .

وقد أقيم ذلك الحفل فى تمام الساعة السابعة من مساء اليوم الحادى عشر من أغسطس فى المسرح المذكور ، فبدىء بعزف اجماعى لافتتاحية (أوفرتير) من « بيتهوفن » تلتها مقطوعة لروسينى (Rossini) . ثم ظهر « شوبان » فى رقة بنيته وضآلة جسمه . ولم يبد عليه مظهر من مظاهر الخوف أو التهيب ، بقدر ما كان يبدو عليه من أمارات الغضب والتأثر . وذلك لأن الفرقة لم تستطع القيام بعزف مقطوعة من متنوعاته كان قد أعدها فى برنامج الحفل ، ولما رأى عجز الفرقة عن الأداء المطلوب أثناء التدريب عدل عن عرضها . وجلس الى البيانو يصوغ ألحانا مرتجلة بناها على أساس من الأوبرا الهزلية « السيدة البيضاء » للموسيقار بوالدييه

(Boïeldieu) ثم انتقل منها الى ابتكارات أخرى أنشأها على أغنية عرس شعبية بولونية ، هذا لحنها :

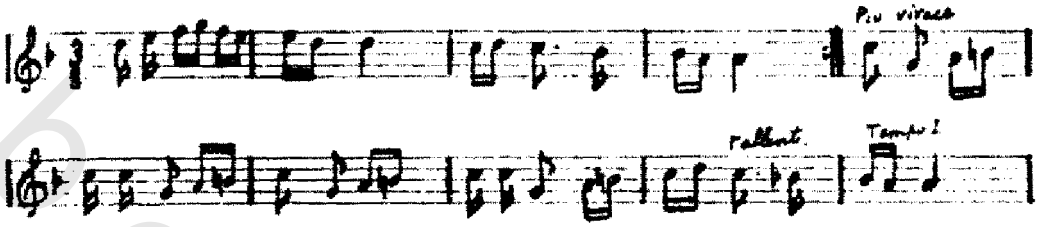

وقد أثارت هذه الأغنية ، وما ابتكره عليها من ألحان ، عاصفة تلو عاصفة من استحسان الجماهير الذين سرت موجة الموسيقى فى عروقهم مسرى الكهرباء ، فأحالت أبدانهم الى شبه أرواح قد نقيت من مادتها ، وأخذت تهتز فى رقصات الأغصان على المقاعد ، متجاوبة مع حركات الايقاع وسحر الابداع .

ولم يكن أحد فى ڤينا يتسنى له أن يجارى « شوبان » فى قوة هذا التدفق والارتجال المبتكر . لذلك فقد أخذ الاعجاب بألباب الجماهير ، وتملكتهم الحيرة ، وعجبوا كيف يمكن أن تخرج هذه الأنامل الدقيقة كل هذه المشاعر والأحاسيس التى سيطرت عليهم فلم يستطيعوا الانطلاق من أسرها شيبا وشبانا ، ورجالا ونساء .

وكان من أثر النجاح الباهر فى هـذا الحفـل أن طلب الى « شوبان » احياء حفل آخر بعد أسبوع واحد . أما فى هذه المرة فقد أمكن للفرقة أن تعزف مقطوعته « روندو كراكوڤياك » بعد أن حذقوا دراستها ، وأتموا المران عليها ، وكذلك قامت بعزف متنوعات له أنشأها على فكرة تخيرها من موسيقى موتسارت .

وقد بلغ من اعجاب الأمير ليشنوفسكى (Lichnowsky) صديق « بيتهوفن » الحميم أن يتقدم الى « شوبان » بتحية حارة ، وهنأ فيه الشباب الذى يبشر بمستقبل عبقرية خالدة . كما كانت دهشة الجمهور وهيئات الموسيقيين والنقاد بالغة ، اذ وجدوا فى هذه الموسيقى روحا جديدة فى معناها ومبناها . فكتبت مجلة « المسرح » بقينا تقول :

« لقد كانت مفاجأة رائعة ، اذ لم تسمع الجماهير من « شوبان » موسيقى يكفى فى تمجيدها أنها جيدة فحسب ، بل لقد جعلهم يشعرون بأنها صدى عبقرية جبارة لها طابعها الخاص وأثرها البالغ الممتاز فى العزف والتأليف على السواء » .

وكتبت « المجلة العامة للموسيقى » تقول :

« ان رقة اللمس عند العزف ، والمهارة التى قل أن توصف ، فى كمال النضوج ، وعمق الشعور ، ووضوح الأصوات ، وسلاسة التعبير ... كل ذلك كان من آيات تلك العبقرية الفذة النادرة المثال » .

واذا كان شىء من النقد قد وجه الى « شوبان » فقد كان مرجعه — على حد تعبيره — الى مبالغته فى رقة العزف الذى تنقصه القوة واشباع الصوت . وهو فى هذا يكتب الى والده قائلا :

« ... وعلى العموم فانهم يزعمون هنا أننى ضعيف فى عزفى ، أو على الأصح رقيق العزف بالنسبة الى ما تعوده الجمهور من عازفى

البيان من صخب وعنف • وانى لأوثر أن يقال عنى أننى أوفر رقة من أن يقال اننى أشد صخبا » •

وفى موضع آخر من رسائله يقول :

« ••• هذه هى طريقتى فى العزف ••• وانى لعلى ثقة من أنها تروق للسيدات وتطيب للفنانين » •

وبعد هذا الأمد القصير الذى أقامه بڤينا ونال فيه التفوق على نظرائه فيها اعتزم الرحلة الى پراج ، وكان فى توديعه الموسيقار شرنى (Czerny) الذى طالما اشترك معه فى العزف على آلتين من البيان • وكان « شوبان » يطلق عليه اسم « الرجل الطيب » ويصفه بالامتياز عن الملحنين باللون الأكثر عاطفية •

وفى پراج تعرف الى الموسيقار پكسيس (Pixis) ثم الى الموسيقار اسكندر كلنجل (Alexander Klengel) الذى يعرف له أربعة وعشرون مقطوعة من نوع الاتباع (الكانون) ومثلها من نوع التسلسل (الفوج) على مختلف المفاتيح • وهى أمثل ما سجل وخلد فى هذا النوع بعد مؤلفات « باخ » •

وقد أعجب كل من العبقريين « شوبان » و « كلنجل » بصاحبه حتى أمضيا نصف يوم كامل يعزفان معا ، وهما فى جو مترع بالجمال الفنى المليء بالابتكارات والابتداع ، فى غبطة تجمع لهما جلال الفن وجمال الطرب •

ومن ثمت واصل « شوبان » الرحلة الى كلارى (Clary) والتقى فيها بجمع من الأستقراطيين والنبلاء من بينهم أمير وقائد

تمساويان ، وقائد بحرية انجليزية ، وقائد سكسونى ، وعدد من الفتيات والسيدات الممتازات فى الأناقة والجمال • وبعد تناول الشاى أقبلت أميرة القصر على « شوبان » ترجو أن يقدم بعض فنه على البيان • فأفسح المجال لهم فى أن يتخيروا فكرة من أية مقطوعة موسيقية ليبنى عليها ابتكاره وارتجاله • فتخير أحدهم فكرة من ألحان « روسينى » • وقد استجاب « شوبان » وأخذ يصور هذه الفكرة ويجملها ، ويبنى عليها ، ويبتكر من روائع نغمه وغزير مادته ، حتى هز مشاعرهم ، ونقلهم الى عالم من الفتنة والروعة والسمو • وتناهى بهم الاعجاب الى أن يستعيدوه الى بداية العزف أربع مرات متتالية • وألح عليه الجميع فى أن يطيل اقامته فى «تپلتز» ولكنه اعتذر بضرورة مواصلته للرحلة •

ثم أقام أياما قليلة فى درسدن ، واصل بعدها الرحلة الى برسلاو • وكانت خاتمة المطاف أن عاد الى وطنه فى اليوم الثانى عشر من شهر سبتمبر عام ١٨٢٩ •

آخر العهد بوارسو

عندما عاد « شوبان » الى وارسو رأى بها حربا قلمية وحملة صحفية ، تحرف الكلم عن مواضعه ، وتقلب الحقائق ، وتشوه الأوضاع ، وتنقل مكان أنباء التكريم والترحيب والنجاح ومظاهرات الاعجاب التى لقيها فى ڤينا أنباء عكسية مختلفة مصطنعة . الا أن الحقيقة لا يمكن اخفاؤها بالانكار ولا محوها بالجحود . فقد فشلت محاولات الانتقاص من قدره ، ولم ينل الحساد منه منالا ، كما لم يجدوا فيه مهمزا ولا مغمزا .

أما الحقيقة فهى أن « شوبان » فضلا عن اتصالاته ومقابلاته لأعلام الموسيقى فى جميع الجهات التى رحل اليها ومر بها ، والتعرف الى شخصياتها الرفيعة من عظماء وأشراف وأمراء وذوى مكانات ممتازة ، فان الحفلات التى أقامهـا ولاسيما حفلتى ڤينـا تركت فى نفسه أثرا حميدا ، وبعثت فيه قوة الاعتزاز بفنه ، وان كان هو الفنان المتواضع ذلك التواضع الذى حمله فى بداية رحلته الى ڤينا على الامتناع عن الظهور فى حفل عام ليعرض فنه على جمهورها قائلا ان جمهور ڤينا قد استمعت آذانه عبقريات هايدن وموتسارت وبيتهوفن فبأى واحد من هؤلاء الثلاثة أقرر فنى وأرفع صوتى !! فاذا ما طال الالحاح عليه وقبل الدعوة راغما ، ولبى الرغبة مكرها ، رأى أساطين الفن وجهابذة الموسيقى وحملة لوائها المبرزين فى ڤينا

يقبلون عليه ويحيونه ، فيعجب لهم من اعجابهم به • وبلغ به التواضع حدا أنساه نفسه حين سمع مقالة بعضهم « ان ڤينا كان يمكن أن تخسر كثيرا لو أن « شوبان » غادرها دون احياء حفلات بها » • ورغم ذلك كله فان تواضع « شوبان » لم يتغير ولم يتأثر باعجاب ولا اطراء • ولهذافهو يقول لوالده فى رسالة بعث بها من ڤينا بعد الحفلين المشار اليهما :

« اننى على أية حال لن أستجيب الى احياء حفل ثالث • وما قمت بهذا الحفل الثانى الا مخافة أن يقول البعض فى وارسو انه لم يقم سوى حفل واحد كان نصيبه الاخفاق والفشل فأسرع بالعودة الى وارسو » •

ثم استمع اليه كيف يقابل بالايمان والثقة عدم رضاء بعض الناس عن فنه حين يقول :

« لم يخلق بعد من يستطيع ارضاء الجميع فان ارضاء الناس غاية لاتدرك » •

ثم تأمل كيف يكمن حب وارسو فى ضمير هذا الفنان ، ويستولى على قلبه الفتى ، فيعبر عنه أصدق تعبير حين يستكثر الناس عليه فى ڤينا أن تكون أرض وارسو تربة صالحة لانبات هذا النبوغ وانضاجه فيقول :

« ان أغبى حمـار يستطيع أن يصبح شيئا اذا كان أستاذاه زيفنى والسنر » •

أرأيت الى هذه النفس الصافية الطيبة التى يغمرها الايثار

والاعتراف بالجميل ؟... أرأيت الى ذلك الفنان كيف يحب وطنه . ثم يركز هذا الحب فيرسم منه هالة من العظمة حول استاذيه ، وقد تمثل فيهما بولونيا بأسرها ، فاعترف لها بالمجد والعظمة ، وأنها قادرة على أن تجعل من الحيوان شيئا مذكورا ؟...

ضع هذا الخلق النبيل ، ووازن بينه وبين ما أعد له الحساد من حملات صحفية استقبلوه بها عند عودته بدلا من طاقات الأزهار وأكاليل الرياحين. ولكن هـذه فى الغالب طريقـة من مكافآت الأبطال . ولعلها هى الطريقة المثلى فى اظهار فضلهم .

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لهـا لسان حسود

على أنه اذا كانت نار الغل تفرى قلوب الحساد ، فان للحق أنصارا على كل حال . وقد وجد « شوبان » الصحف التى أثنت على مواهبه وقدرت فنه ، وقلدته الثناء على ما أبدى فى رحلته من فن كان المجد فيه لوطنه قبل نفسه ولأساتذته قبل شخصه .

وقد اكتسب « شوبان » منذ صباه خبرة بأخلاق الناس قويت بما قام به من رحلات اتصل فيها بمختلف الطبقات ورأى متباين المزايا والصفات . واتضح له أنه ليس كل فنان صادقه واتصل به كان نبيلا فى خلقه بريئا من المداهنة والحقد . لذلك كان يحوط بالتقدير والاجلال من وجده فى الموسيقيين على خلق سام وبراءة صافية ، ويحتفظ له بأسمى صفات الوفاء مدى حياته .

وكان عجبا لدى زملائه الفنانين أن لا يتخير « شوبان » الاقامة فى ڤينا بعد ما لقى بها من نجاح باهر ، فان الاقامة فى عاصمة البلاط

القيصرى كانت أقصى حلم ذهبى تستشرف اليه آمال كل فنان فى ذلك العصر • ولكنه « شوبان » الذى يعيش من فنه فيما هو أكبر من حاضرة البلاط القيصرى ، يعيش فى مملكة رحيبة من العظمة الروحية التى تغنيه عن أبواب الشهرة وأزاهير الاعجاب وكلمات الاطراء • وهو رغم ذلك يبدو ككل شاعر أصيل وعبقرى سام كثير التشكك فى نبوغه ، لا يقنع بما دون النجوم • وقد كان بنفسه ينتقص من قيمة عزفه فى ڤينا على رغم ما أحيط به من ثناء المعجبين ، ولا سيما العارفين بالأصول الفنية الذين وصفوا عزفه بأنه يمتاز بالهدوء والرشاقة والتمكن •

ثم هو يقرر فى رسالة كتبها الى صديقه تيتوس حين لم يجده بوارسو عند عودته اليها فيقول ان الناشر « هاسلنجر » الذى يتولى طبع مصنفاته كان فى طليعة من أثر عليه لاحياء الحفلات فى ڤينا بحجة أن اسمه لم يبلغ سماء الشهرة وأن مؤلفاته صعبة الأداء وليس من اليسير استيعابها وتطبيقها •

كما قرر أنه فى يوم واحد تعرف الى أشهر أعلام الموسيقى فى ڤينا وقتذاك ومن بينهم مايسيدر (Mazseder) وجيروفتش(Gyrowetz) ولاخنار (Lachner)وكرويزر (Kreutzer) وشوبانزيغ(Schuppanzigh) وغيرهم •

ويقول ان النبيل « ليشنوفسكى » صديق بيتهوفن الحميم عرض بيانه الخاص ليقوم بالعزف عليه فى حفله الثانى بڤينا ، ظنا منه أن خفوت الأصوات فى الحفل الأول كان مرجعه ضعف

فى آلة العزف . وفاته أن الأصوات الهادئة هى التى توائم مزاجه فى الأداء ...

وقد تناقل المؤرخون فيما بينهم مسألة الضعف المبكر فى صحة « شوبان » وبالغوا فى وصف ما ناله من اجهاد وعناء . وقالوا انه أصيب منذ الصبا المبكر بمرض عضال كان يهدده بالموت فى كل حين . وهذا أشبه بالشائعات منه بالحقيقة ، فقد كان شبابه نضيرا ينم عن موفور الصحة واشراق المحيا . يدل على هذا مرحه المتواصل ورسائله الوفيرة وقوة احتماله مشاق الأسفار الطويلة فى رحلة بعد رحلة ، وقدرته على اقامة حفلين فى أسبوع واحد تتخللهما زيارات ومقابلات ومشاهدات للحفلات المسرحية وتحرير الخطابات وتلقى الرسائل والاطلاع على الكتب والصحف ، الى غير ذلك من أعمال لا يقوم بها غير الأصحاء الكاملين .

حقا ان « شوبان » ذا بنية رقيقة وجسم دقيق ، الا أنه كان سليما قويا مستكمل الصحة . ولم يحدث له فى ميعة الصبا ولا فى مطلع فجر الشباب مرض مما يتحدثون به عنه . ولم يقع فريسة للمرض الا بعد نحو عشرة أعوام من هذا التاريخ على أثر الحياة المثيرة الصاخبة التى عاشها فى باريس . يثبت هذا ما أكده صديقه وزميله المدرسى « ولهلم فون كلبرج » أنه طيلة الصبا والشباب ، والى أن بلغ سن الرجولة ، لم يلم به المرض سوى مرة واحدة تأثر فيها ببرد .

أما أن والدته وشقيقاته كن يفرطن فى تدليله مبالغة فى حبه والاشفاق عليه فما فى ذلك ريب • وكن اذا حذرنه عواقب اختلاف الجو ورطوبته ، وطلبن اليه العناية بالتدثر والاتقاء كان يقابل ذلك بروح مرحة وان كان يلبى النصيحة كولد مطيع •

وكثيرا ما كانت تمر على « شوبان » لحظات يستولى عليه الفن فيها فيذهب به الى أعماق غائرة من التفكير يبعد فيها عن تذكر أخص أصحابه وأقرب أصدقائه الى نفسه ، وتحجبه عن العالم الخارجى بأسره • ولكنه استمر مأخوذا بأسباب المسرات ، متحليا بمظاهر الغبطة والرضا ، مشاطرا فى ذلك شقيقاته وأصدقاءه • ولم يكن فى وقت من الأوقات سببا فى تكدير الصفاء لمجلس من المجالس ، بل على عكس ذلك ما يكاد يوجد فى مجتمع ترفرف عليه البهجة وتبدو على من فيه الرغبة فى الرقص حتى يقوم من فوره وبدعوة من مزاجه الفنى اليقظ الى آلة البيان ، فى غير حاجه الى الرجاء أو التوسلات من الحاضرين فيسمعهم من مقطوعات الرقص ألحانا ساحرة ومقطوعات رائعة تزيد فى ابتهاجهم وتملأ جوهم هناءة وسعادة • واذا رأى عازفا غير مجيد نحاه فى مجاملة وأدب ، وأخذ مكانه فى العزف •

أما ما كان يحوط نفسه من الشجن والاحتراق ، وما يقيمه ويقعده من الطموح الى المثل العليا ، وحبه العميق الذى تأجج فى أعماق صدره لهفا على « كونستانتيا جلادكوفسكا » ••• كل هذه الأحاسيس يصورها «شوبان» فى رسالة بعث بها من وارسو الى صديقه « تيتوس » يقول فيها :

« انك لا تستطيع أن تتصور مدى آلامى الآن فى وارسو . ولولا ما تحوطنى به أسرتى من موفور العطف وسابغ الرعاية والحنان ما احتملت المقام بها . وما أمر ذلك الشعور الذى يساورنى عندما أستيقظ فى الصباح المبكر فلا أجد من أمضى اليه ليشاطرنى آلامى وأفراحى !! وما أقسى أن يحتمل المرء كبت الشعور فى نفسه ، ثم لا يجد من يخفف عنه هذا العبء الفادح . وأنت تدرك على وجه التحديد ما أحاول أن أكشف عنه وأبوح بجليته . ولكن جميع أسرارى التى أريد أن أرفع لك النقاب عنها لا أجد لى متنفسا للافصاح عنها سوى أن أودعها أوتار هذا البيان ؛ وأدع للموسيقى مهمة التعبير والتصوير » .

وقد شغل «شوبان» نفسه طوال هذا الوقت الذى أقامه بوارسو متفانيا فى العزف والتأليف والاستماع الى انتاج مشاهير الموسيقيين . وقد ترك ثلاثى بيتهوفن الأخير فى نفسه أثرا لا يمحى حتى وصفه بقوله :

« انى لم أسمع فى كل ما مر بى من حياتى فنا فى مثل هذه العظمة والروعة » .

ولا ريب فى أن هذه النماذج الرفيعة والآثار المثالية هى الوقود الذى يذكى شعلة النبوغ فى هؤلاء العباقرة ، ومن بينهم « شوبان » . فكلما أعجب بشىء كان اعجابه أداة تحريض وتشجيع على العمل ، والمحاكاة فى غير تقليد . ومن عوامل قصر الجهد أن ينحصر العبقرى فى حدود نفسه فلا يستمع الى سواه ؛ وبهذا تظل

معلوماته فى حدود ضيقة ؛ وانتاجه كذلك محدود الأفق لا ينمو ولا يسمو .

ولقد كان « شوبان » كثير التردد على دار الأوبرا حيث يستمتع أحيانا بصوت حبيب الى نفسه هو صوت « كونستانتيا » التى كان عظيم الاعجاب بها ؛ بالغ التأثر بتمثيلها ورشاقتها وسعة منطقة صوتها . وقد تم التعارف بينهما ، وصاحب أداءها بالعزف على آلة البيان . وقد كان يجد من اللهف عليها والوجد بها ما يكاد يذهب بصوابه ويسلمه للانهيار . فهل يستطيع الافلات من أغلال هذا الهوى اذا هو أفلت من الحياة فى وارسو ؟ أم عليه أن يبقى بها الى جانب حبيبته التى هى كل شىء فى حياته الآن ؟

لقد تردد « شوبان » بين الأمرين . ولم يقصر أمد هذه الحيرة سوى اجابته لدعوة الأمير « رادزويل » لقضاء بعض فصل الخريف بقصره فى « أنطونين » . وقد لقى هناك ما يلقى الرجل العظيم من حفاوة وحسن استقبال . وكان لهذا الأمير ابنتان هما زهرة هذا الفردوس جمالا ، ونجمتاه اللامعتان فى سمائه . فهما غاية فى الرقة ونهاية فى كمال الأدب . قد اجتمع لهما كمال الخلق وجمال الخلق ، مع ميل قوى وشغف وافر بالموسيقى . وقد أبدتا رغبة ملحة فى أن يقوم الفنان الشاب بشىء من التوجيه لهما فى دروس البيان . وكانت « ڤاندا » احدى الأميرتين تسلمه يدها فيحس بسعادة لاحد لها حين يضع أناملها الصغيرة على مفاتيح المعزف . أما الأميرة « الزا » شقيقتها فلقد بلغت من قوة الاستعداد الموسيقى أنها لم تكن فى حاجة الى من يرشدها الى موضع القوة واللين فى العزف ، أو السرعة

obeikandl.com

ومنتخبات لغيرهما من مشاهير الموسيقيين . وكان عزف « شوبان » بالغ الروعة قوى التأثير على الرغم من أن البهو الذى كان يعزف به لم يكن من الناحية الصوتية مستوفيا للصفات التى ينبغى أن تتوافر فى مثله . وكان « شوبان » رغم ذلك موضع اجلال العارفين بالقيم الفنية ، والذين يقدرون الموسيقى الرفيعة حق قدرتها . ولنسجل هنا فيما يلى تلك الرسالة التى كتبها أحد الذين شهدوا الحفل على أثر عودته منه ، والشعور غض والذهن حاضر والذكريات ماثلة قال :

« فى الحادى عشر من مارس عام ١٨٣٠ الساعة الحادية عشرة مساء .

لقد عدت توا من حضور الحفل الذى أحياه « شوبان » هذا الفنان الذى كنت قد سمعته ولما يتخط السابعة من سنه ، وكان يومذاك لايزيد عن أن يكون مجرد أمل فى مستقبل غير محدود . ما أروع عزفه اليوم !!! أية غزارة وأى انسجام وسهولة وتدفق !!! من المحال أن يتصور وجود انسجام فى هذا العالم مثل هذا الذى نجده صادرا عن « شوبان » . انه يعزف بثبات وثقة وصفاء تتميز فيه الأصوات ، وليس بها ظل للكبوات والعثرات . ان موسيقاه مليئة بالمشاعر والأحاسيس ، تنقل سامعها الى عالم غير متناه من طرب وانسجام مفرطين يعيدان الى ذاكرته جميع لحظات السعادة التى مر بها » .

الا أن الجمهور البطىء الفهم فى ادراك عظمة الفنان لم يستقبل هذا البرنامج بما كان ينتظر له من اعجاب ، اذ لم يكن ذلك

الا فى مقدور ذوى الثقافات الفنية والخبرة الممتازة التى تمكنهم من تتبع مثل هـذه البرامج والحكم عليهـا • وكانت محبوبته « كونستانتيا » فيمن شاهد هـذا الحفل ، وقد اتخذت مكانها فى المقاعد الأمامية ، وهى ترسل ابتسامات تشف عن الرضا • وقد وجد فيها الفنان مكافأة روحية تفوق عنده كل جزاء وتقدير •

وقد اضطره هذا النقص فيما كان ينتظره من التأييد العام الى اقامة حفل آخر على غير طراز الحفل السابق • وحدد موعده بالثانى والعشرين من مارس • وساير فيه مزاج الجماهير ، فجعل مكان آلة بيانه الرقيقة الصوت آلة أخرى من صنع ڤينا ترن أصواتها رنين الأجراس • فبلغ فى هذا الحفل نجاحا لا عهد له به ، حتى كان صياح الجماهير يرتفع خلال العزف وهم يهتفون « حفل ثالث ••• حفل ثالث » • وبالغت الصحف فى تمجيده والاشادة به حتى قال بعض الكتاب ان العالم لم يشهد عازفا مثل « شوبان » الا أن يكون موتسارت • وأجمع أهل الرأى على أنه قد أصبح أقدر عازف بالبيان وأعظم مؤلف موسيقى تحت سماء بولونيا •

وانقضت على ذلك أسابيع لم يتنسم فيها « شوبان » عبير الهناء والابتهاج ، فان حبه لكونستانتيا ، وشوقه الى صديقه تيتوس ، كلاهما أقض مضجعه وحرمه طيب الهدوء ولذة النوم • وانتهى به ذلك الى ألم النفس ونحول الجسم ، وهو يحمل رسائلهما على صدره فى غدوه ورواحه ، وفى مصبحه وممساه • وكثيرا مانوه بأنه انما يؤلف للتعبير عن الوجد لحبيبته والشوق الى صديقه •

وقد حضرت الى وارسو المغنية الألمانية الشهيرة هنريت سونتاج (Henriette Sontag) وقد أقامت بها ست حفلات زادت بها شهرتها ومكانتها • وقد قام الأمير « رادزويل » بتقديم « شوبان » اليها فملأت قلبه فتنة وسحرا ، بما لفنها من السمو وما لجمالها من الروعة • وقد عبر عن اعجابه هذا بقوله : « ان جمالها فائق الحد وبراعة صوتها تأسر الجميع » • وقد قام بدوره بتقديم حبيبته « كونستانتيا » الى تلك المطربة الفاتنة التى لم تكن زيارتها لوارسو الا سحابة صيف ما سلمت حتى ودعت •

وقد حدد اليوم الثانى من نوفمبر عام ١٨٣٠ ليبدأ الرحلة الى ڤينا • وفى الصباح المبكر من ذلك اليوم رافقه للتوديع أستاذه « السنر » وأصاقاؤه وجمهرة من الموسيقيين الى وولا « Wola » احدى ضواحى وارسو ، وقد تجمع بها طلاب معهد الموسيقى عن بكرة أبيهم • واشترك الجميع فى احياء مهرجان تكريمى للفنان الصغير الكبير • فرأى نفسه أمام مفاجأة لم تكن فى تقديره ، حيث أنشد الجميع أغنية قام بتلحينها « السنر » خصيصا لهذه المناسبة • وكانت فرقة من المغنين تؤدى الألحان ، بينما يكرر الجميع ترديد هذا المذهب وهو :

« ان فراقك للوطن ليترك فينا كبير الألم • ولا يخفف عنا الأشجان سوى أن روحك ستظل متحدة معنا على مدى الزمان • تقبل أحر أمانينا بمستقبل سعيد • سنحتفظ لك فى قلوبنا بالأشواق • ونهتف لك من صميم الأعماق : ليبتسم لك نور الحظ السعيد كلما طالعك صباح يوم جديد » •

ولقد بلغ به التأثر أقصى نهايته ، وامتقع لونه ، وخفق فؤاده . عندما تقدم اليه أحد أصدقائه باسم الجميع فأهداه كأسا فضية قد ملئت الى حافتها بتراب أرض الوطن • وهنا يؤخذ الفنان على غرة بهذا التعبير العجيب فى معنى الوطنية والوفاء • وهو مشهد يثير الأحاسيس وينبه كامن الخواطر • لذا فهو لا يستطيع كتمان شعوره ولا اخفاء تنهداته المرسلة فى اطار من الدمع الحار حين يخاطبه هذا الصديق قائلا :

« كن حيثما تكون ، وامض حيثما شئت ، ولكن لا تنس الوطن • لا تضن عليه باحساسك الحار وقلبك المخلص الخفاق بحبه وتقديسه • اذكر بولونيا ، واذكر بها أصدقاءك الذين يفاخرون بأنك مواطنهم ، والذين يرتقبون على يديك الأمل المشرق والمطمح البعيد ، وينثرون حول خطاك أزهار التمنيات على طول الطريق ، ويضعون على رأسك اكليلا من خالص الدعوات باليمن والتوفيق »•

وعلى اثر ذلك ودعهم « شـــوبان » وصافح الجميع واحدا واحدا • وبدأ رحلته الطويلة ، والطويلة جدا •••

أما فيما بينه وبين « كونستانتيا » فقد أهدى كل منهما الى صاحبه خاتما تذكاريا ، وان كانا لم يرتبطا بخطبة أو يتواعدا على قران • وقد سطرت بيدها فى مذكراته الخاصة هذه الكلمات :

« تذكر ! ولا تنس يوما أننا هنا فى بولونيا نحبك مهما نأيت ••• وقد يقـــدرونك خارج الوطن أكثر من تقـــديرنا نحن لك ، وقد

يكافئونك أكثر من مكافأتنا اياك ، ولكن شيئا واحد لن يبلغوه وهو أن يحبوك أكثر من حبنا لك » .

ترى أكان يشعر كل من الحبيبين بأن هذا الوداع هو آخر العهد بينهما وأن لا لقاء بعد اليوم فلن يراها ولن تراه ؟... فقد شاء القدر أن يعجل بقرانها بعد انقضاء سنتين على هذا اللقاء الأخير بالنبيل « جوزيف جرابوفسكى » أحد أثرياء الريف فتزوجت منه فى الحادى والثلاثين من يناير عام ١٨٣٢ واعتزلت المسرح وفن الغناء ، وأخلدت فى حياتها الزوجية الى السكينة والهدوء . وعاشت سعيدة هانئة فى جو ترف عليه البهجة والصفاء . ورزقت خمسة أطفال كانوا ثمار حياتها الزوجية ... ولقد شاء القدر أن يسلب « كونستانتيا » نور هاتين العينين اللتين طالما نصبت منهما أشراكا لقلب « شوبان » ، واللتين طالما كان يتخذهما نافذتين يطل منهما على دنيا الأمل ونور الرجاء ، فأصبحنا الآن بغير نور ولا اشعاع . فقد أصيبت بفقد بصرها فى عام ١٨٤٥ ... وأخيرا فجعت بوفاة زوجها بعد فجيعتها فى بصرها ... وهكذا بقيت « كونستانتيا » منفردة بين ألمين يتنازعان نفسها ، ولونين من الذكريات يتقاسمان قلبها . أما زوجها فله منها ذكرى المعاشرة والوفاء . وأما « شوبان » فله عندها ذكرى الحب الذى يخلده الفن . وهو حب كانت تلقى عليه ستارا كثيفا من كبرياء المرأة أو من مقتضيات التقاليد ، فقد عبرت عن حبها له فى مذكراته يوم رحيله بأن أحد فى الخارج لن يبلغ من تقديره ومكافأته بما يماثل هذا الحب . ولكنها فى تعبيرها عن ذلك تتقمص شخصية بولونيا وتعبر عن هذا الشعور

كواحدة من عداد الناس الذين يقدرون الفنان الكبير . وهذا التخفي وكبت الشعور لا يلبث أن ينحسر عنه اللثام وترتفع دونه الحجب والأستار لتنجلي الحقيقة مكشوفة واضحة عندما تذهب الى آلة البيان فتردد تلك الأغنيات التي كانت تغنيها بمصاحبة عزف « شوبان » . فما هي الا أن تنبعث النغمات حتى تنطلق الدموع معبرة عن الذكريات المكبوتة ...

كذلك ودع الفنان والديه وشقيقاته . وليس أحد يحتاج الى من يصف له شعور أسرة يفارقها أعز آمالها وأحب أنجالها ، بل وحيدها الذي تستمسك به رجاءا لمستقبلها بقدر ما كان أنسا لحاضرها ... لقد صافحته على الرغم منها مصافحة الوداع ... بل عانقه كل فرد منها في قبلات حارة ودموع تتفجر من قلب محترق ... ولكن فيم هذه الدموع وتلك الأشجان !!! فليكن هذا الوداع ألما وقتيا ، ثم يمضي الفتى ليسطع في سماء الفن كوكبا عالي الضوء باهر الاشراق ، ولتملأ سمعته جميع الآفاق ، وليعد بعد ذلك الى أسرته المحبوبة ليسعدها في الكبر كما أسعدته في الصغر . فلتجف الدموع ، وليخف البكاء ، ولتنطفىء حرقة الأسى في بسمات الأمل الذي سيعود به « شوبان » ...

ولكن هل عاد شوبان ؟...

رحلة وثورة

بدأ الفنان الكبير رحلته فى مستهل نوفمبر عام ١٨٣٠ ، وكان على موعد سابق مع صديقه « تيتوس » فالتقا فى غاليسيا لينجزا ما اعتزماه من القيام معا برحلة غير قصيرة . وكان « تيتوس » هذا يكبر « شوبان » ببضع سنين . كما كان تكوينه على النقيض من صاحبه فى ضخامة الجسم وقوة البنية وحدة الطبع ، رغم ما كان يجمع بين قلبيهما من شدة التعلق بالموسيقى والشغف بها . ومع أن « تيتوس » كان يمتاز بيد غليظة كأنما خلقت للنضال والجلاد ، فقد كانت تثير العجب فى نفسك وأنت ترى تلك الأصابع الغليظة وهى تنتقل بين مفاتيح آلة البيان فى رشاقة الأنامل الرقيقة ، وخفة النسيم العابر . وكان « تيتوس » الضخم أطوع لشوبان من بنانه ، ينقاد له انقياد البعيرلراعيه الصغير . وقد توقفا فى رحلتهما بمدينتى برسلاو ودرسدن ، وقضيا فى كل منهما قرابة أسبوع أمضياه فى مشاهدة الألوان الفنية بين المسارح والحفلات وزيارة ذوى المكانة من أعلام الموسيقى وأقطاب الفن بهما .

وقد تقدم « شوبان » بخطاب توصية الى السيدة البولونية دبرزيكا (Dobrzycka) كبيرة وصيفات الأميرة « أوغستا » وكانت تعيش فى جناح من القصر معد لاقامتها . فأحسنت استقباله فى درسدن وأكرمت وفادته ودعته الى حفل مسائى فى مسكنها لم تدع اليه سوى المقربين والخلصاء . وتلقى « شوبان » هذه

الدعوة بالرضا . وان كان يعتقد أنها ستكون اختبارا لمدى استعداده الموسيقى ونهاية ما يتسامى اليه قدره فى هذا الفن . ولما حان الموعد أقبل الفنان على بهو كبيرة الوصيفات ، ولم يتبين به سوى قليلين من المدعوين ، يتألفون من بضع سيدات ورجل يناهز الثلاثين . قد يكون أحد العلماء . أما صاحبة الدعوة فقد أسبغت على « شوبان » فيضا من التكريم عندما قدمته الى الحاضرين بقولها :

« هذا هو السيد « فردريك شوبان » مواطننا العبقرى الفتى والفنان الممتاز الذى أسعدنا بحضوره ليمتعنا بطرائف من مقطوعاته فى المازوكة تحمل الينا فى أنغامها صوت الوطن المحبوب » .

أخذ « شوبان » مكانه من آلة البيان ، وهو على خير ما يكون صفاءا واعتدالا فى المزاج . يحمل فى قلبه احساس الفنان الشاعر ، وتملأ جوانحه الذكريات الحبيبة ... شوق وولع بكونستانتيا ، وتعلق ولهف الى الوالدين والشقيقات ، وتشوف وحنين الى الوطن ... كانت تلك الخواطر هى التى تسيطر على أحاسيسه وتملأ جوانب نفسه ، وهى التى انتقلت من مشاعره الى أنامله ، ومن أحاسيس الوجدان الى أوتار البيان ، فأخذ يترجمها ويعبر عنها أصدق تعبير فى أسلوب قلّ أن يكون له مثيل ... وما هو الا أن انسابت النغمات فيما حولها انسياب الكهرباء حتى سكن القوم مأخوذين بهذا السحر الجديد ، مستمتعين بعذوبة تلك الموسيقى التى جعلتهم ينظرون فوق ماكانوا ينتظرون . حتى اذا أتم عزفه

أقبلت صاحبة الدعوة وقد ترقرق الدمع فى عينيها وهى تقول : « شكرا لك يا « شوبان » فانك فى هذه الليلة قد منحت أصحاب السمو الملكى ساعة سعيدة » • ولم يكن أولئك سوى الأميرة « أوغستا » والأميرة « مكسمليانا » والأمير « يوحنا » أشقاء ملك سكسونيا • وهذا الأخير هو الذى ظنه « شوبان » بادى الأمر أحد العلماء • وقد أحاطه الجميع بعطفهم ، وزودوه بالتوصيات الى شخصيات كبيرة فى ڤينا •

وما كاد يقترب شهر نوفمبر من نهايته حتى كان « شوبان » وصديقه « تيتوس » قد بلغا مدينة ڤينا على خير حال • وقد وفقا عند أول وصولهما الى استئجار جناح مؤلف من ثلاث غرف فى شارع « كولماركت » •

ولكن « شوبان » كان يدور فى مخيلته وهو فى طريقه الى ڤينا أن تلك المدينة التى يكن لها أغلى الذكريات أيام شهدت حفلاته فى رحلاته الأولى اليها ، وطوقته بهالة الاعجاب ، وألهبت أكف أبناءها بالتصفيق ، وأطلقت حناجرهم بدوى الهتاف والاستحسان ، تلك المدينة ستفتح صدرها مرة ثانية لاستقباله والاحتفاء بمقدمه • ولكن ما كادت تهبط قدمه أرض ڤينا حتى تبددت أحلامه ، وخابت آماله فى مستمعيه وزملائه ومعارفه وجماهير المعجبين به • وكان شأن ڤينا فى ذلك شأن العواصم والحواضر الكبرى التى تضم الكتل البشرية بالملايين ، وتتغير عليها مناظر الغادين والرائحين فى سرعة الخيال ، وما أسرع ما يتبدل فيها قوم بقوم ، يتأثرون بعوامل وأفكار غير التى تأثر بها غيرهم من قبل •

وكان هذا هو شأن « شوبان » فى ڤينا فقد وجد بعض عارفيه قد غادروها ، كما أن من بقى من زملائه وأنداده ما لبثوا أن تجهموا له وتنكروا لمقدمه ، فقد خافوا على أنفسهم أن يطول به المقام فى مدينتهم ، وأن يؤثرها على سواها ، لا سيما وقد أصبح فنانا ناضجا مستكمل القوة والأداة . فقدومه هذا أشد نذير بمنافس خطير . أما الناشر « هاسلنجر » الذى كان يلحف عليه قبلا فى زيارته الأولى لاقامة حفلاته بالمجان فقد قابله بترحاب لا يعدو المجاملة العادية . وأبى شراء مؤلفاته ، كما كان « شوبان » هو الآخر على غير استعداد لمنحها اياه بالمجان ليبيعها هو بأغلى الأثمان . وقد كتب فى ذلك الى والده يقول : « ربما كان هذا الرجل يعتقد أننى سأستجديه ثمن مؤلفاتى ، أو أن أجود عليه بها دون مقابل . ان زمن المجان قد انقضى ، وهذا زمن الدفع » .

وهكذا واجه الفنان الشاب صدمات عنيفة متتالية من الغربة ، وبعد الأصدقاء، وتنكر الزملاء ، وتجهم العارفين ، وتجاهل الجماهير . كل ذلك ضيق عليه الأفق الرحيب وبدل أنسه وحشة ، وراحته عناءا ، وصفاءه كدرا ...

على أن ذلك كان هينا محتملا لولم تحمل اليه الصحف أنباء قيام الثورة فى وارسو . تلك الثورة التى اندلع لهيبها فى اليوم التاسع والعشرين من نوفمبر عقب وصوله بقليل . فان الشعب البولونى الذى طال به العهد وهو يرسف فى أغلال العبودية هب من رقدته ينشد الحرية ويطالب بالاستقلال . وكان مما تناقلته

الأخبار أنه فى هذا اليوم هجم ثمانية عشر ثائرا محاولين اقتحام قصر « بلڤديرا » حيث يقيم الأمير « قسطنطين » نائب قيصر روسيا فى حكم بولونيا ، قصد اغتياله . ولكنهم وصلوا متأخرين فقد أفلت الطائر من يد الصياد ، وطار من عشه ، وفر مع جيشه الروسى ، منسحبا من وارسو الى بلاده ... وتنفس الشعب البولونى الصعداء واغتبط بتحقيق آماله القومية . وتألفت فى اليوم التالى حكومة وطنية أعلنت على روسيا حرب الاستقلال . وتقدم الألوف من الشبان للتطوع فى صفوف التجنيد .

ولقد كان ابتهاج الصديقين الغريبين فى ڤينا بالغا أشده بهذه الأنباء . ولم يطل الانتظار بتيتوس فأسرع بالعودة ليقوم بواجبه الوطنى . وبقى « شوبان » فى ڤينا وقد أضيف له ألم الوحدة الى وحشة الغربة ، وهو يشكو عدم قدرته على المساهمة فى هذه الحركة . وماذا كانت تستطيع أن تبلغه تلك الأنامل الرقيقة فى هذا المعترك المائج الذى هو ميدان السواعد المفتولة ، والعزيمة الحاضرة ، والأبدان المدربة ، والأيدى القوية التى خلقت للكر والفر وامتشاق الحسام ؟... وما هو الدور الذى كان يمكنه أن يقوم به ذلك الرأس الوديع ، الفتى الصغير ، فى هذه الأمواج المتدفقة والثورة الهوجاء ؟... هذا ما كان يدور بين « شوبان » وبين نفسه من حوار حول ما يجب أن يقوم به لبولونيا العزيزة . ولما لم يسعفه المنطق بجواب سديد أسعفته عاطفته الجياشة بحب الوطن فاستقل عربة ليلحق بصديقه فى الطريق فلم يدركه . وانما أدركه فيه من برد الشتاء ، ورطوبته القاسية ، وتقلب الجو ما حمله

على الرجوع الى ڤينا ابقاء على بنيته التى لاتحتمل مقاومة الطبيعة فى مثل هذه الحال • ولما عاد الى ڤينا وجد بمسكنه رسالة تنتظره من والده الذى كان يدرك من تلقاء نفسه ما عسى أن يختلج فى صدر ولده من شعور فكتب اليه يأمره بضرورة البقاء فى ڤينا وبألا ينحرف عن مواصلة السير فى طريق مستقبله ؛ لأن تضحيته الشخصية لا تحقق أيه ثمرة مرجوة للوطن •

ولم تقع هذه الحركة البولونية موقع الرضا من النمسا ومن الرأى العام فى ڤينا بأسرها ، فقد كانت النمسا تشاطر ألمانيا وروسيا نصيبا من السيطرة على بولونيا ••• وحمل ذلك غالبية الفنانين فى العاصمة على أن يتنكروا لشوبان • وما ظنك بالجماهير من سواد الناس ، وقد كانوا يرمقونه بنظرات ساخرة تشف عن التهكم والاستهزاء ، وقد التمسوا فيه الرمز الناطق لبولونيا التى يحاولون أن يضفوا عليها ما شاءوا من تهكم وتنقيص حتى لقد كان يسمع بأذنيه حديثهم حين يمر بهم الفينة بعد الفينة وهم يقولون « ان الطبيعة لم تحسن الى الحياة البشرية حين سمحت بوجود بولونيا على الأرض » • ولم يكن يتسلم بريده الخاص الا متأخرا عن تعمد من الجهات المسئولة • وكان لزاما عليه أن يعانى تكاليف الحياة فى وحدة مريبة ، وغربة قاسية ، وخوف أليم •

وما كان أعظم تلك المخاوف والآلام حين علم بهجوم الجيوش الروسية بجحافلها الجرارة بقيادة الجرنال «فاسكفتش Paskewitsch» على وارسو • وقد ساوره ما يساور كل فنان فى مثل حاله • وذهبت

به التصورات الى أبعد المذاهب . وخيل اليه منظر المدينة ، وقد أحالتها نيران القذائف الى أتون ، يرتفع دخانها الى السماء ، وتتحول جدرانها وسكانها الى رماد تعصف به الريح . وبين تلك الأطلال والحطام والحريق المستعر والداه الحبيبان ، وشقيقاته العزيزات ، وحبة قلبه « كونستانتيا » وأصدقاؤه وزملاؤه ، وشعبه فى أرض الوطن تلك الأرض التى أنبته ترابها وأظلته سماؤها وسحابها . ولم يكن له فى هذه المحنة من عزاء ولا سلوى سوى أن يملأ فراغ وقته وفضاء وحشته بتسطير الرسائل اليهم فياضة بهذه المعانى ، معبرة عن مبلغ ما يعانيه من أشجان تكاد تذهب بنفسه حسرات ، وتطوى صحيفة شبابه . وقد قال فى احدى رسائله الى أسرته :

« يخيل لى أننى انما أواجه الحياة هنا فى حلم لا فى يقظة ... فاننى دائما معكم وأقيم بكل مشاعرى حيث تقيمون ... انه حلم مستمر لا تنقطع أطيافه ومناظره ... وهذه الأصوات التى تجأر من حولى وينبو عنها سمعى لا أحس بها الا كما يحس العابرون بصخب العربات ... ولقد أصبحت الحياة والموت فى نظرى شيئا واحدا ... وانى لأسائل نفسى لماذا أصبحت وحيدا ؟... » .

وأقبلت مباهج عيد الميلاد فى ڤينا فكانت مهرجانا متواصلا لأهلها بقدر ما كانت مضاعفة لآلام « شـــوبان » ومثيرة لبلابله وأشجانه . وقد كان يستعرض فى خياله شريطا ناطقا من ذكريات أعياد الميلاد السعيدة التى طالما قضاها فى وطنه مع الأهل والعشيرة فى أفراح تتعدد بها ألوان الغبطة والسرور . وكأن « شوبان »

كان يردد فى نفسه قول دانتى « ليس أشد ألما على المرء من أن يذكر فى ساعات بؤسه أيام سعادته » .

لقد مرت عليه أيام هذا العيد حالكة قاتمة ، وقضاها وحيدا فى غرفته نهب الأفكار ، تنتابه السآمة ، ويشتمل عليه اليأس ، ويرده الايمان الى الحياة والرجاء فيها ، الا بعض أيام كان يلمح فيها بريقا من السعادة خلال الضباب المتراكم . وهاهو ذا يصف حياة يوم من هذه الأيام فى بعض رسائله الى أحد أصدقائه فيقول :

« انه لشىء مزعج حقا ... ما الذى أرى ؟ ... ثلاث نوافذ يقع السرير فى اتجاه أحداها ... وتلك آلة البيان الكبيرة فى ميمنتها ، وهذه أريكة تقع فى الميسرة ... وقد توسطت الغرفة منضدة قد صنعت من خشب المهاجونى .. أما أرضها فقد غطتها طبقة من الخشب اللامع ... ولا شىء غير الهدوء والسكون ... أما فى الصباح الباكر فخادم غبى لا يطاق يتولى ايقاظى ... وبعد أن أنهض تقدم الى القهوة ... ولكنى أبادر الى البيان وآخذ فى العزف به ، تاركا الافطار الى جانبى حتى يصبح كالماء البارد ... وفى نحو الساعة التاسعة أستقبل مدرس اللغة الألمانية ... وعلى اثر الدرس أنصرف الى العزف ثانية انتظارا لقدوم هومل « Hummel » (ابن الموسيقار المعروف) ليصورنى ... حتى يقبل نيديكى «Nidecki» ليعزف « كونسرت » من مؤلفاتى ... كل ذلك وأنا ما أزال فى ملابسى المنزلية وقد انتصف النهار ... وها هو ذا شاب ألمانى رقيق الجانب يرافقنى فى نزهة حول المدينة ...

ثم أمضى لتناول الغداء فى مطعم اعتاد أن يغشاه الطلبة ... حتى اذا مال ميزان النهار بادرت الى العودة الى منزلى قبيل الغروب لأصلح من شأنى استعدادا لحضور احدى السهرات ... وفى الساعة العاشرة أو الحادية عشر (لا بعد ذلك أبدا) أعود الى المنزل فأعزف وأغنى وأضحك ... ثم أسلم بدنى الى الفراش وأحلم بكم ... » .

وقد اختتم هذه الرسالة الى صديقه بكلمة دار بها الحديث عن « كونستانتيا » على سبيل التلميح لا التصريح ، فكان مما قال :

« ان موضعا من رسالتك أثار كوامن آلامى ... ترى أما تزال على وفرة من صحتها وتمام عافيتها وسلامتها ؟... ألم تتعرض لحادث من الحوادث ؟... أليست مريضة ؟... ان ذلك لمحتمل الحدوث كثيرا فى حياة من يكون مثلها رقة مزاج ، وتأثر عاطفة ... دعها تطمئن من جانبى وثق باخلاصى . وأبلغها أننى الى الموت ، وحتى بعد الموت ، أثر رفاتى تحت قدميها ... وان هذا لقليل مما أرجو أن تبلغها اياه ... كم تمنيت أن أكتب اليها بنفسى ، ولو كان الأمر فى ذلك الى لبادرت بالكتابة منذ حين ، ولكن مخافة الناس ... فتكلم أنت بلسانى ... لقد كنت من قريب فى ضيافة سيدة بولونية ، وهى من أقارب السيد « باير » واسمها « كونستانتيا » . انى أتردد عليها فى رغبة ملحة ، لا شىء سوى مجرد اسمها ... وجميع ما فى مكتبتها من مراجع وكتب موسيقية ، وكذا كل ما لديها من مناديل ومناشف وأغطية مطرزة باسمها » .

وفى رسالة أخرى كتبها الى صديقه « تيتوس » فى غرة العام الجديد قال :

« أول يناير عام ١٨٣١ — تسلمت خطابك ... وما أدرى ما الذى أعانيه ، وما الذى أنا فيه ... انى لأحبكم أكثر من الحياة نفسها ... أكتب الى ... أحقا أنت فى الجيش !!! ما صنع الله بآبائنا المساكين !!! ماذا يعمل أصدقائى ؟... انى لأعيش بقلبى معكم ... وألقى الموت من أجلكم ... اليوم بداية العام الجديد . ولكن بأى ألم جديد يبدأ !!! وقد لا تمتد بى الحياة الى نهايته ... أما أنت وقد انتظمت فى سلك الجيش فلتعد الينا متقلدا أعلى المناصب والرتب ... رباه !!! مالى لا أستطيع حياة الجندية فأنتظم فى سلك الجيش ، ولو ضاربا بالطبل » .

وبعد أن اختتم رسالته تلك ، سطر فى مذكراته اليومية ما يلى :

« هذا الفراش الذى سأقذف بجسدى اليه الآن كم من جثة قذف بها عليه من قبل ؟... ان هذه الفكرة المثيرة لم يعد فى طاقتها أن تفزعنى بعد ، لأنى لا أفضل الجثة الهامدة فى شىء . لأنها هى الأخرى لا تدرى شيئا عن والدة أو شقيقة أو حبيبة ... كل شىء مما حولى خليق بأن يجعلنى جسدا باردا ... وانى لأدرك من هذا نعمة الموت على الانسان ، وكفى فى هذا عبرة أن يصبح أسوأ الأشياء نعمة ... » .

وهو فى مذكرات هذا اليوم أيضا لم ينس « كونستانتيا » فيقول :

« رباه ! أهى تحبنى ، أم هى تلعب دورا من أدوارها المسرحية ؟ ما أصعب معرفة الحقيقة والوقوف على جلية الأمر . أتحبنى أم لا ؟ كيف أجيب ؟ نعم ... لا ... نعم ... لا ؟... نعم ، مما لاشك فيه . ولكن كيفما كان الأمر فلتكن مشيئتها » .

وهكذا قضى « شوبان » هذه الفترة من حياته تكاد تختنق روحه بآلام الشعور بالوحدة ، وتذوب نفسه حسرات على فراق الأهل والأصدقاء . وكان أمام تلك العواطف التى تجيش فى صدره أقرب الى مشاعر الطفل حين يشتد تعلقه بحنو بيته وملاعب صباه منه الى الرجل الصمود الجلد الذى يعرف كيف يهزأ بالمكاره ، ويضرب الحوادث بمعوله اذا اعترضت سبيله ، ليشق لنفسه الطريق الى الحياة التى يرجوها .

لقد كان عليه بحكم فنه ومهنته أن يشهد الولائم ، ويحضر المجتمعات ، ويشارك فى الحفلات . وكان عليه أن يرتدى ملابس خاصة ، وأن يتجمل بما تقتضيه دواعى اللياقة ... عليه أن يصطنع البسمات على ثغره ، والطلاقة على وجهه ، والاشراق على محياه ... وأن يظهر أنه اجتماعى ، مشارك لهذه الجماعات ، بينما هو وحيد ، حتى فى وسط جلبتها وضوضائها . فليس له من بين هؤلاء صديق يأنس اليه ، ويعول عليه ... ولكن الصديق الوحيد الذى كان يستقبله كل أمسية ، فى غير منّ ولا لوم ، هو آلة البيان . فاذا ماعاد من تلك الحفلات بقلبه المحطم ، وآوى الى مسكنه حين ينتصف الليل ، مال الى تلك الآلة الحبيبة فأنطق أوتارها ، وباح لها بما يضنى

كاهله من أسرار وخفايا لم يجد لهـا من الخلطاء من يبثه اياها . فكانت هى متنفس آلامه ، وسلوة أشجانه ، ومسجلة شعوره ، ومصورة عواطفه .

ولا بد لنا من وقفة يسيرة ازاء هذه الحالة النفسية لشوبان . هل يؤخذ على الفنان عيشه فى خياله ، وفناؤه فى شعوره ، وانسياقه مع عواطفه تذهب به كل مذهب ، وتطير به كل مطار ؟... وهل لزام عليه أن يعيش فى كفاح العامل ، ونضال الجندى ، وصبر البحار على مقاومة أعاصير الحياة المختلفة ؟... الجواب الصحيح لهذه المسألة أن الفنان ليس سوى مجموعة أخيلة وعواطف يعيش فيها بمعزل عن الناس ، بل يفر من المجتمعات اليهـا ، ويدع العمران والمدن ليعيش مع الطبيعة وطيورها ورياضها ، فى سكينة النفس ، وهدوء الروح . فاذا ما اعتاد الصخب ، وألف الضجيج ، وجمدت فيه عاطفة الحب ، وانطفأت فيه جـذوة الشوق ولوعة الهيام ، لم يبق منه سوى انسان عادى ، وليس له شخصية الفنان الممتاز التى تبتدع وتبتكر .

وهكذا كان استسلام « شوبان » للعواطف التى استولت على مشاعره ، سواء فى شدة شوقه الى أهله وذوى قرباه وسائر أصدقائه ، أوفى صبابته الثائرة بمعبودته « كونستانتيا » ، أوفى غربته عن الوطن ، ووحدته المريرة فى سكينة ليالى الشتاء الطوال ، واقامته بين قوم يمتهنون وطنه وبلاده ، ويلومون الطبيعة على ايجادها على الأرض ... كل ذلك قد تحول فى نفس « شوبان » الفنان الى ألحان ما كان لها أن تخلق هذا الخلق الحى لولا مرارة تلك

الآلام . وما أيقظته فى روحه من مشاعر وأحاسيس . وهكذا يذوب الفنانون ويحترقون شموعا لينيروا ظلام هذا الكون ...

ومن أراد أن يتبين ظلال تلك الآلام ، ليرى كيف تحولت الى أنغام فليستمع الى « شوبان » فى كثير وكثير مما أنتجه خلال تلك العوامل المحيطة به ، تلك العوامل التى وان كانت قد أشقته ردحا من الدهر فقد أسعدتنا والعالم معنا باخراجه تلك الأشجان المريرة فى اطار من النغم الحلو واللحن الساحر الخالد . وقد أنتج فى هذه الفترة عددا من مبتكراته ، نختص بالذكر منها : فالس رى مينير الكبير (مصنف ٧٠ رقم ٣) ثم أولى مقطوعات النوكتورن ، ومقطوعتى « كونسرت » مى مينير (مصنف رقم ١١) ، وفا مينير (مصنف رقم ٢١) . وهذه الثلاثة كلها من آثاره الممتعة وصحائف فنه الخالدة . وان دور آلة البيان فى المقطوعتين الأخيرتين يعد فريدا فى نوعه ، فذا فى التعبير عن عاطفته . ولقد وصف الموسيقار « لست » قسم « الأداجيو » من « الكونسرت » الثانى بقوله : « ان هذه المقطوعة كلها قد بلغت فى سموها أوج الكمال ... وما أروع سرعته التى ينقلنا بها الى المرح ، ومنه الى العاطفة العميقة ، ثم الى الاحساس القوى بالنور وهو يفيض حتى يغمر أرجاء الطبيعة ومروجها حيث السهل المنبسط الهادىء الهنىء ، تمثل من فوقه قصة مؤلمة فى حوادثهـا ، مظلمة فى مناظرها . ثم تستعرض الموسيقى بعد ذلك فى ألحانها أولئك الذين اختلفت طبائعهم وقد وحدت بين قلوبهم المصائب والآلام » .

وان موسيقى « شـوبان » المليئة بعواطفه ، المترجمة عن أحاسيسه ومشـاعره ، كانت تجد صـداها فى قلوب الجماهير ، وبخاصة هؤلاء الذين أذابت قلوبهم لوعة الحب ، وأدارت عليهم الصبابة كؤوسها المترعة ، وكذلك المتقدمون فى السن من الشيوخ الذين كانت تجدد فيهم تلك الألحان ذكريات المـاضى . هؤلاء الفئات من الناس كانوا أقرب من سواهم الى هضم تلك الموسيقى ، وادراك مراميها ، وفهم معانيها .

على أن تلك الآلام المبرحة التى أضنته فى ڤينا ، كان يخفف أعباءها الفادحة فى كثير من الاوقات تلك المجتمعات التى كانت تقيمها أسر النبـلاء والأشراف والطبقة الراقيـة ، فهنالك كان « شوبان » يرى فى حلوكة الليالى المظلمة أشعة نجوم الأمل تلامس قلبه فتوقظه من رقدة اليأس ، وتخفف عنه عناء الذكريات . ومما سرى عنه أشجانه تردده على الدكتور مالفاتى «Malfatti» الطبيب السابق لبيتهوفن ، وطبيب البلاط فى ڤينا ، وقد امتاز بخفة روحه وتعلقه الشديد بالموسيقى . وكان يقيم فى مغنى جميل تحف به حديقه غناء ، كأنما صاغته الطبيعة من ألوان أزهارها وفتنة مناظرها قطعة موسيقية فاتنة ، وقد أكسبها اقبال الربيع نضرة وجمالا ، وزانت جوانبها أزهارالمشمش والكريز . وكانت بها شرفة تطل على نافورة جميلة قد استهوت بمنظرها الأخاذ روح « شـوبان » فأغرم بالجلوس فيها حيث يودع آلة البيان أسرار قلبه ، وأعمق عواطفه ، وأرق ألحانه .

وقد عنى فيما كان يغشاه من الحفلات بالتعرف الى نجوم الموسيقى الذين يسطعون فى سماء ڤينا • وكان ممن استرعى اعجابه ودهشته من هؤلاء موسيقى نادر يدعى سلفيك «Slavik» وهو عازف ماهر بآلة الكمان ، يكاد يعد فى عزفه من الأعاجيب الفنية حتى أن « شوبان » ليصفه بقوله :

« هذا بجانبى آخر ، يستطيع أن يؤدى ستة وتسعين من الأصوات المختلفة المتقطعة فى حركة واحدة ، هى رحلة القوس التى يقطعها مسرعا على وتر الكمان » •

وهكذا انقضى الشتاء والربيع ، بحلوهما ومرهما • على أن ڤينا لم تستطع أن تقدم اليه ما يحمله على اطالة المكث بها والاقامة فيها • وقد سيطرت على جوها الموسيقى موجة طاغية من « الڤالس » وهو النوع الوحيد الذى أخذ أهلها يهيمون به اذ ذاك ، وأصابهم منه ما يشبه الحمى حتى ان الناشرين وجهوا كل جهودهم لطبع المقطوعات من هذا النوع ، معرضين عن كل ما سواه مهما علت قيمته وسمت منزلته • كما أيأس « شوبان » من اطالة هذه الاقامة شعوره بأن مناخ ڤينا غير ملائم لحالته الصحية •

أمام هذه الدوافع أزمع « شوبان » الرحيل عن تلك المدينة • ولكن الى أين ؟••• الى فرنسا ، أم الى ألمانيا ، أم الى انجلترا ؟••• انه الآن كثير التردد ، لا يستطيع أن يقطع بوجه من هذه الوجوه فيما ينتويه من الرحلة • وكم كان يتمنى أن يكون سفره الى ايطاليا لينهل من فيض موسيقاها الغزير ، ويتصل بأعلامها الأفذاذ

وهى يومئذ غنية وافرة الغنى بالموسيقى وبأولئك المؤلفين المشهود لهم بالتفوق فى الانتاج والمقدرة على التصنيف فى مختلف الألوان الموسيقية غنائية وآلية • وقد وقف دون تحقيق هذه الأمنية الغالية ما بلغه من اندلاع لهيب الثورة واشتعال نارها المستعرة فى ربوع ايطاليا وعواصمها المختلفة •

وما زال به التردد فى أمر رحلته ، وسبيل وجهتها ، حتى استقر رأيه أخيرا على أن تكون الوجهة باريس • وقد كاد يحول دون ذلك أن جواز سفره روسى ، وأن روسيا لا تنظر بعين الرضا الى ارتياد هذه المدينة التى أصبحت ملتقى المهاجرين من البولونيين الفارين من سياستها الخانقة فى بلادهم الى فضاء الحرية الرحيب تحت سماء فرنسا • وقد عجزت الوسائل والوساطات لدى سفارة روسيا فى ڤينا عن أن تمنحه الترخيص بالسفر الى باريس • وكان آخر ما انتهت اليه الحيل والفتاوى أن يحصل على الترخيص بالسفر الى لندن عن طريق باريس • وبذلك هدأ اضطرابه ، وسكنت نفسه • وكتب الى والده باعتزامه مغادرة ڤينا فى العشرين من يوليه عام ١٨٣١ وأبلغه أنه سيبدأ رحلته وهو راقل فى حلل الصحة ممتع بموفور العافية ، وأنه وان كان لديه من المال ما يكفيه الا أنه يرجو الوالد ارسال مزيد منه على سبيل الاحتياط الى مدينة ميونخ التى سيمر بها فى طريقه •

وقبيل الرحلة بأيام تلقى « شوبان » من الكاتب البولونى الشهير « فيتڤيكى Witwicki » رسالة تعد فى رقتها متعة أدبية ،

وفى سموها أنشودة وطنية ، أصابت الوتر الحساس من قلب الفنان الطموح • وقد جاء فى هذه الرسالة :

« احتفظ على الدوام باتجاه روحك الى الوطن • نعم الى الوطن • ومرة أخرى الى الوطن • وقد تصبح هذه الكلمات خلوا من كل معنى لو توجه بها كاتبها الى فنان عادى ، وليس الأمر فيها كذلك عندما توجه الى عبقرى مثلك • وكما أن للوطن مناخه القومى فان له كذلك أغانيه القومية التى تحمل طابعه وصورته • وان ما يشتمل عليه الوطن بين أرضه وسمائه من جبال وغابات ، وأودية ومياه ، يعبر فى وجوده عن معنى قومى ، ويفضى بأسرار ليس الوصول الى فهمها فى مقدور الجميع على السواء ••• ولكننى ياعزيزى « فردريك » كلما طال بى التفكير أطاف بى الأمل الحلو ، وهمس فى روعى ، بأن ستكون أنت الأول الذى يفض خاتم هذه الأسرار القومية ، ويخلق الكنوز الفنية الغنية للألحان السلافية • تقب عن أغانى الشعب السلافى كما ينقبون فى الجبال عن الصخور المعدنية والمائية ••• لقد انتهى الى علمى أن صدرك يضيق بما تعيش فيه الآن ، وأن أثر تلك الحياة فى معيشتك ينتهى بك الى الوهن فى عزيمتك • ولو كنت فى مثل مكانك لقلت : ليس لبولونى الحق فى البقاء على وجه الأرض ساعة مالم يقدم فيها عملا مجيدا لوطنه الذى أصبح فريسة بين الموت والحياة ••• اذكر دائما أيها الصديق الموهوب أنك لم تسافر لكى تذبل نضارتك ، بل آثرت النزوح عن بلادك لتكمل نفسك فى فنك ، ولتكون الرجاء لأسرتك ، والعزاء لوطنك ، فى الاشادة بهما وتخليد ذكرهما » •

وفى صبيحة اليوم العشرين من يوليه أقلته عربة البريد الى مدينة « زالتسبورج » ومنها الى « ميونخ » وقد أقام بها بضعة أسابيع • ثم استأنف الرحلة الى مدينة « ستوتجارت » التى بلغه بها فى الثامن من سبتمبر نبأ سقوط وارسو فى يد الروس مرة أخرى ••• وقد أثار هذا النبأ المحزن كل ما سكن فى نفسه من أشجان مروعة ، فأخذ يترجمها ، ويعبر عنها فى ألحانه ، على مألوف عادته • فأنشأ مقطوعته « دراسة دو مينير » (مصنف ١٠ رقم ١٢) • وهى التى أطلق عليها فيما بعد اسم « دراسة الثورة » •

ومما يترجم عن خلجات صدره فى ذلك الوقت ما أودعه مذكراته اذ يقول :

« لكأنى أرى الضواحى تنقوض وتحترق • وهاهما صديقاى جاس (Jas) وڤيلوس (Wilus) يقتلان دون ريب فى الموقعة • وهاهو « بسكوفتش » الغشوم وصحبه من الروس يستولون على المدينة العزيزة !!! موسكو تصدر أوامرها الى جميع العالم ••• رباه ! أين عدالتك وانتقامك ؟ ألم تقض الكأس المترعة بلصوصية أهل موسكو ؟••• وأخيرا هل الأقدار تعيش فى روسيا ؟ » •

ولم يكن يدور بخلد « شوبان » الفنان المبعد يوما أنه سيكون على ما وصفه بدرڤسكى « Paderewski » :

« انه العبقرى الذى سينقل بأوراق تدوينه الموسيقى ذكر بولونيا خارج حدودها المحصورة الممنوعة • وأنه هو الكاهن المنتظر الذى سيقوم بالتبشير فى العالم لنشر مجد بلاده » •

باريس

مدينة العازفين على البيان

ما كادت عربة البريد تتجاوز مداخل باريس حتى وثب « شوبان » واتخذ مكانه الى جانب السائق ، وأخذ يجيل بصره بين المناظر التى لم يكن له بها عهد . وقد راعته المبانى التى تفرع النجم بطولها ، وتزاحم الناس فى كتل بشرية متحركة بما يشبه حركة الأمواج الصاخبة فى المحيط ، وقد خيل اليه لكثرة هذا الازدحام أن باريس قد قامت بها ثورة ثانية ... فهذه طائفة قد طوقت أعناقها بأربطة تتميز بها ... وهؤلاء يرتدون صديريا يختلف لونه باختلاف العشيرة أو المذهب ... بينما آخرون يرتدون معاطف طويلة تكاد تصل الى أقدامهم ... ثم هذا فنان يحتذى مثال « رفائيل » فى زيه ، وقد أرسل شعره حتى تدلى الى منكبيه ، ووضع على رأسه قبعة عريضة ... وأولئك آخرون يمثلون فى أزيائهم حياة العصور الوسطى ... وبين هذه الطوائف والجماعات ترى الباعة المتجولين وقد انبثوا فى كل مكان يعرضون سلعهم ...

وكانت مناظر هذه الأخلاط ، وتلك الجماهير وما تحمله من صخب وضوضاء ، مما لم يسترح اليه « شوبان » بادىء الأمر . ولكن سرعان ما استطار لبه فرحا بتلك المفاجأة التى لم يكن يتوقعها . وأى شىء أروح لنفسه ، وأهنأ لقلبه ، من رؤية مظاهرة قوامها

الشباب يسيرون فى الطرقات ، ويهزون الأرجاء بصوت واحد يرتفع من الجميع « لتحيى بولونيا » !!!

أما السائق الذى لم يكن يجهل شيئا من الطرقات ، ولا من الجهات التى يقصدها ، فقد أسرع الى نفس « شوبان » المتلهفة بايضاح جلية هـذا المنظر وأعلمه أنهـا مظاهرة تكريم للجنرال رامورينو « Ramorino » الايطالى الذى تطوع لانقاذ بولونيا من براثن الاستعباد الروسى .

وكان التزاحم بالغا أشـده فتريثت العربة الى أن اجتازتها المظاهرة ، ثم واصلت السير الى محط وصولها المعتاد ...

لم يطل الوقت بشوبان حتى وفق الى العثـور على مسكن مؤلف من غرفتين فى الدور الرابـع فى « البوليفـار بويزونيير رقم ٢٧ » . وقد سره من هذا المسكن وجود شرفة به كانت تطل على « البوليفار » الى مدى بعيد . أما تلك الأشجار الباسقة التى انتظمت فى صفوف على جانبى الطريق ، فقـد كانت فى تناسقها وجمال خضرتها وامتداد ظلالها موضع اعجابه ومصدر ابتهاجه .

وفى اليوم التالى اندمج « شوبان » فى مصاف الجماهير الصاخبة بين الطرقات والميادين ، وأنساه ذلك الى حين ما كان يلقاه فى ڤينا من الوحشة والاغتراب . على أن اعجابه هذا لم يستمر طويلا ، فقد أقلقته كثرة الضجيج ، وتلك المظاهرات التى لا ينقطع سيلها ، وهـذه الأحاديث التى تتوالى دون انقطاع حول الموضـوعات السياسية وما تستتبعه من فضول ، حتى كان مما كتبه الى صديقه « تيتوس » قوله :

« انك لا تستطيع أن تتصور مدى ذلك التأثير الذى انتابنى من صيحات الشعب المتذمر وهو يرعد ويتوعد » .

ولو لم يتحدث بذلك « شوبان » فى رسائله لتحدثت بذلك طبيعته ، فهو لا يستقر قراره بين تلك المزعجات ، ولا يمكن أن تسكن نفسه الى الضوضاء الصاخبة ، وليس لغط السياسة مما يطرب له سمعه أو يميل اليه طبعه . وانما هو موسيقى بشعوره ولحمه ودمه . ومن أجل الموسيقى عاش ، وفى سبيلها ارتحل . لهذا لم يكن له تجوال ولا تردد الا على الأماكن الحافلة بالموسيقى وبخاصة الأوبرا الايطالية . ولم يكد يعثر على ضالته المنشودة حتى تراه يكتب فى رسائله قائلا :

« هنا يستطيع المرء أن يتعرف ما هو الغناء . واليوم ستغنى ماليبران جارشيا (Malibran-Garcia)ملكة الغناء فى أوربا جميعها »

وقد قدم « شوبان » ما كان لديه من خطابات التوصية الى الموسيقار پيير« Paër» وفى وقت وجيز أمكنه بواسطته التعرف الى كبار الموسيقيين بباريس وفى طليعتهم شيروبينى« Cherubini » وروسينى ثم كالكبرنر « Kalkbrenner » الذى طبقت شهرته الآفاق فى العزف بآلة البيان حتى بزّ فيها الأنداد والنظراء ، وعد أمهر العازفين بها فى أمم العالم جمعاء . وقد خطر لشوبان أن يزوره ، فولى شطر منزله ، وقلبه يرجف تهيبا من تلك الشخصية الكبيرة المتفردة فى فنها والرهيبة فى شهرتها . فلما لقيه وجد الرجل الذى يجمع الى عظمته الهدوء والاعتدال . أما نظراته فعميقة فاحصة

تخترق الحجب الى ماخلفها بين دقيق أسرار النفس • ويدل سمته على الوقار ، وعلى أنه رجل مثالى فى فضيلة الخلق • وفوق جميع الاعتبارات أستاذ عالم ، كان عزفه بالبيان احدى صور الاعجاز الفنى الذى لايمكن تحديه بموازنة أو مقارنة • وهو فى هذا العزف ثابت رزين ، لا يحرك رأسه ولا شيئا من جسمه بأقل حركة ، فهو سامى الأسلوب فى العزف ، ومذهبه فيه أبعد من أن يجارى ، وأصعب من أن ينال • وحسبك فى وصفه تلك الصورة التى يرسمها « شوبان » عنه فى هذه الجملة الموجزة :

« انه عملاق ضخم وبقية العازفين بالبيان ليسوا الى جانبه سوى أقزام ، وأنا فى الطليعة من هؤلاء » •

واذا كنا قد تبينا رأى « شوبان » فى « كالكبرنر » فلنتوجه الى هذا الأخير لنلتمس عنده الرأى فى صاحبه • فقد استمع كل منهما الى الآخر عدة مرات ولما أتم « شوبان » عزف مقطوعته « كونسرتمى مينير » قال له « كالكبرنر » :

« ان لك عزف كرامر « Cramer » وتوقيع فيلد « Field » • وقد ارتدى « شوبان » من نسيج هذا الثناء وشاحا جعله يغتبط بنعمة الفن فى نفسه • وعلى الرغم من هذا الاطراء فان « شوبان » على معهود سنته فى التواضع لم يذهب فى الأمر مذهب الاستطالة والخيلاء ، بل تقدم الى العالم العازف ملتمسا منه أن يقبله تلميذا فى مدرسة فنه • ولم يفت « كالكبرنر » أن يتحين هذه الفرصة الذهبية التى ألقاها اليه القدر عفوا بلا طلب ، وهو أن يعد

« شوبان » نجم المستقبل العالمي خريج مدرسته وتلميذ فنه • فقد رأى بعين فراسته الثاقبة ما كان ينتظر هذا الفتى من صيت ذائع ومستقبل لامع • فأراد أن يكون مساهما فى فضل بناء هذا الصرح فحقق ملتمس « شوبان » وأخذ يوجه نظره فى الحال الى بعض أخطائه ، وفقدان القوة فى أسلوبه ، حتى لقد وضع اشارات بقلمه على بعض مواطن من مقطوعته « الكونسرت » يرى تعديلها • وقد اشترط الأستاذ على تلميذه ألا تقل مدة هذه التلمذة عن ثلاث سنوات • فبدا لشوبان أنها أطول مما ينبغى ، وأن لابد من استشارة والده ، واستطلاع رأى أستاذه ومربيه « السنر » • وقد تلقى منهما الاجابة الحاسمة ، والرد القاطع الذى سيبقى العالم مدينا به لهما كلما ذكر « شوبان » • فقد كان طريق « شوبان » مع « كالكبرنر » طريقا ينتهى بانهيار شخصيته ، وذهاب عبقريته كمؤلف ، ليتفرد بمهنة العازف الذى هو صورة مقلدة من شخصية أستاذه • فلنستمع الى الوالد فى رده عليه ماذا يقول ؟...

« أى بنى العزيز !! اننى لم أستطع أن أفهم كيف يرى « كالكبرنر » ، وقد أقر لك بهذا الاستعداد ، أنك لا تزال بحاجة الى قضاء ثلاثة أعوام فى ظل ارشاده ليخلق منك فنانا وزعيم مدرسة • انك تعلم أننى لم أدخر جهدا فى تنفيذ رغباتك ، ولم أقصر عن غاية تصل بك الى المزيد من تثقيفك وانماء مواهبك • ولم أعترض سبيلك فى أمر ما • ولعله لا يغيب عنك أنك لم تهب الوقت الكافى من زمنك لتدريب الأصابع ومهارة العزف بالبيان ، فقد كانت روحك متفانية فى الموسيقى ، مشغولة بها أكثر من أصابعك » •

ومما سجله الوالد فى هذا الخطاب ، وهو يمثل فيه رأى « السنر » قوله له :

« ان المحاكاة لن تصل فى قيمتها الى جمال الأصل ومكانته • وأنت حينما تقلد لن تكون أصيلا مهما برعت فى هذا التقليد • كن صغيرا ما شئت ، ولكنك رغم هذا ستجد فى قدرتك ، وفى متناول شخصيتك التعبير عما يجيش بفكرك أكثر مما يستطيعه غيرك ، مهما سمت مكانته وخبرته ، ورسخت قدمه فى العزف • وان « السنر » لا يطمع فى أن تكون عازفا ماهرا فحسب ، أو مجرد فنان نال شهرته عن طريق التدريب وطول المران ، فان ذلك سهل غير بعيد المنال ، وهو عديم القيمة على أية حال ••• انما يريد « السنر » أن تضع نفسك حيث اختارتك الطبيعة ، لتؤدى الرسالة التى خلقك الله لها ••• ولقد كاد يتميز غيظا من تلك الجرأة التى حملت « كالكبرنر » على وضع اشارات بقلمه نقدا لبعض ما اشتملت عليه مقطوعة « الكونسرت » • وكيف يسمح لنفسه بذلك قبل أن يتاح له استكمال الحكم الصحيح عليها بالوقوف على تأثير موسيقاها حين يستمعها من فرقة كاملة ، كما يقتضيه تأليفها للعزف الاجماعى • على أن أعمال يد المحو فى مقطوعة تمت لجريمة فنية لا تغتفر • فالمقطوعة الكاملة فى جملتها أشبه بالمنزل الذى تم بناؤه • فليس لأحد أن يعمل على هدم شىء من دعائمه بحجة الزيادة على الحاجة • أو بمعنى آخر ليس له أن يكون عاملا على انهيار صرح بأكمله بدعوى أنه لم يحز رضاه ولم ينل اعجابه ••• ويقول « السنر » أيضا انك الآن تتمتع بالمقدرة التى

تستطيع معها التمييز بين الجيد وماهو أجود منه . وان فى مستطاعك أن تشق الطريق ، وستهديك عبقريتك الى بلوغ نهاية أهدافك وكمال مقاصدك ... ويقول « السنر » ان لك فوق جميع الاعتبارات طابعا ممتازا وايقاعا متفردا كذلك ، وقد صبغك بهما وطنك ، وجعل لفنك لونا ذاتيا ، وطابعا أصيلا ، يحتم عليك الواجب أن تحتفظ بهما » .

أما ماخطه « السنر » بنفسه الى تلميذه « شوبان » فهاك رسالته التى نلمس فيها الحنو الأبوى ، والنصح التربيبى ، والتوجيه الفنى ، والغيرة الوطنية . قال :

« وارسو فى ٢٧ من نوفمبر عام ١٨٣١

صديقى العزيز

اطلعت فى مزيد من الاغتباط على رسالتك التى تناولت فيها الحديث عن « كالكبرنر » وحسن لقائه لك ، وهو عازف البيان الأول (على حد تعبيرك) . وقد كنت عرفت والده عام ١٨٠٥ ، وولده ما يزال فى طراوة السن ونضارة الصبا ، وان كان يعد من أمهر العازفين وقتذاك . وانه ليطيب لى أن يعد باطلاعك على مكنون أسرار الفن . ولكن الذى أذهلنى فى الأمر هو أنك تحتاج فيما يقدر لك الى قضاء ثلاثة أعوام أخرى !!! فهل تبين حين رآك وسمعك للمرة الأولى أنك مازلت حتى الآن بحاجة الى استنفاد مثل هذا الزمن الطويل للوصول بك الى فهم طريقته ؟... وهل تبين فى غير تردد أن استعدادك الموسيقى وقف على البيان ، وأن

موهبتك فى التلحين مقصورة على الانتاج فى هذه الدائرة وحدها ؟ فان كان يرغب مخلصا فى أن يضع خبرته الفنية فى خدمة الموسيقى بصفة عامة ، وخدمتك بصفة خاصة ، وكان فى ذلك مثال الصديق الوفى ، فكن له التلميذ الشاكر .

انما الذى ينبغى هو أن تكون الدراسة فى علم صوغ الألحان غير محدودة الأفق ، ولا متقيدة بحرفية القواعد الموضوعة . وذلك ألزم بالنسبة للفنانين الممتازين فى استعدادهم ، والذين تنبىء موهبتهم عن قوة شخصيتهم واستقلالهم . وانه لخير للمربى أن يفسح المجال لهؤلاء حتى يشقوا طريقهم دون تقييد أو تأثير . فقد يكون فى مكنتهم الوصول الى مالم نستطع الوصول اليه . وينبغى أن لا يكون الهدف هو بلوغ الطالب مستوى أستاذه وكفى لكى يقفا معا فى درجة واحدة من المعرفة ، بل يجب أن يستند الطالب الى شخصيته ، ويعتمد على عبقريته ، فى السمو الى درجة أعلى ، يكون هو المتفرد فيها حيث تلمع شخصيته وحدها .

ومجرد العزف على الآلات ، مهما بلغ صاحبه من المهارة فيه ، مثل « پجانينى » على الكمان أو « كالكبرنر » على البيان ، ومهما يكن هذا العزف ساحرا رائعا ، فانه فى أية درجة يبلغها ، وفى أى مقام يرتقيه ، فليس سوى وسيلة من وسائل الفن ، وليس غاية له . ولا أدلّ على ذلك من أن الشهرة التى نالها « موتسارت » و « بيتهوفن » باعتبارهما أمهر عازفين بالبيان بين معاصريهما قد اختفت بموتهما . بل وأزيدك على ذلك أن مقطوعاتهما التى وضعاها خاصة بآلة البيان ، وان كان لا يخالف فى سمو قيمتها أحد ، قد طغى

عليها الكثير مما لا يحصى من مؤلفات هذا النوع ، وأثرت فى شهرتها الأذواق المتعاقبة المختلفة بين قديم وحديث • وقد تسألنى اذن فيم كان خلود هذين العبقريين وشهرتهما العالمية ؟ فأقول لك ان شهرتهما الخالدة انما كانت فى تراثهما الفنى الباقى على الزمن ، ذلك التراث الفنى الذى لم يحدد بآلة واحدة بل كان الهاما موسيقيا عاما ، غير مقيد ولا محدود ، كما يتجلى ذلك فيما خلفاه من أوبرات وسمفونيات ورباعيات وسواها من انتاجهما الموسيقى التليد الذى سيظل قويا على تعاقب الأجيال ، ويسمو على كل ما تنتجه العصور المتتالية دون أن يتطاول انتاج أى عصر الى مثل مكانته •

وعلى المربى كذلك أن لا يطيل على التلميذ مدة تلقينه طريقة معينة ، وذوق معين ، لشعب معين • فالجمال الحق لن يكون تقليدا أبدا • ولكنه يتجلى فى ارتباط العبقرية بالمشاعر والأحاسيس • وليس فى الدنيا من بلغ نهاية الفن ، ولا فى الوجود من أدرك نهاية الكمال • فالكمال لله وحده • لذلك ينبغى أن يظل باب الاجتهاد مفتوحا أمام الجميع • وليست الأفراد ولا مختلف الشعوب فى تحصيلها قاطعة فى هذا الطريق الا شوطا محدودا نحو الكمال طال أو قصر •

وبكلمة موجزة أقول لك انه لن يستطيع الفنان أن ينال اعجاب معاصريه الا عن طريق شخصيته ، وباستكمال نفسه لنفسه • وان شهرته فى الحاضر ، وخلوده فى المستقبل لن يتحققا الا حيث تكون دعامتهما عبقريته الذاتية التى تتجلى فى انتاجه الفنى •

سأكتب اليك فيما بعد بأوفى من هذا • وأملى أن تبلغ أخلص تحياتى الى النبيـــل « پلاتر Plater» و « جرزيمالا Grzymala » و « هوفمان Hofmann » كما أرجو أن تحمل أشـــواقى الى « لسوار Lesueur » و « پيير Paër » مع تمنياتى الى « كالكبرنر » و « نوربلين Norblin »

جوزيف السنر

وقد كان من أثر هاتين الرسالتين ، من والد « شوبان » وأستاذه أن عدل « شوبان » عن هذه التلمذة • على أن « كالكبرنر » كان مثال الفنان المخلص فلم يغضبه رفض « شوبان » وأسرته لذلك العرض ، بل تولى بنفسه تقديم فنان بولونيا الى أعلام الموسيقى فى باريس وبخاصة الموســيقار هيلر (Hiller) وهو من مشـــاهير العازفين بالبيان ، كما أنه مؤلف وكاتب موسيقى ، والموســيقار فرانخوم (Franchome) عازف ممتاز بآلة الكمان الجهير (الڤيولنسيل) وقد كان لهما كبير الفضل فى معاونة « شوبان » على اقامة حفلاته فى باريس •

ففى السادس والعشرين من فبراير عام ١٨٣٢ اشترك « شوبان » للمرة الأولى فى حفل عام ، قام فيه خمسة من أشهر العازفين بالكمان بتأدية احدى خماسيات بيتهوفن • كما قام ستة من أمهر العازفين بالبيان ، فى مقدمتهم « كالكبرنر » و « هيلر » و « شوبان » بعزف مقطوعة من تصنيف « كالكبرنر » وضعها لتؤدى بست آلات من البيان • ثم تلا ذلك مقطوعة شـــوبان « كونسرت فا مينير » ومتنوعاته على أحد ألحان موتسارت •

فردريك شوپان في الثانية والعشرين من عمره

وبدأ « شوبان » على المسرح فى هذا المساء فتى نحيلا شاحب اللون • ولم يكن فى البهو من المشاهـدين الا من يشغل نصف المقاعد وأكثريتهم من البولونيين ، وعدد من النقاد • وكان فى المقاعد الأمامية فتى موسيقى ، متوقد النظرات ، شديد الترقب والانتباه • ولم يكن ذلك الفتى الشاب سوى « لست » الموسيقار العالمى فيما بعد • وقد تملكه العجب بمجرد لمس أنامل « شوبان » لمفاتيح البيان • أما ألحانه فقد أخذت بمجامع لبه •

وأخذ « شـوبان » مكانه من البيان ، منفردا بعزف قطعـة جديدة • وراح يتحدث الى الناس عن طريق هذا العزف حديثا لا عهد لهم به من قبل • وأحس كل فرد فى هذا الجمع بأسرار هذا الحديث ، وهى تنفذ الى شغاف قلبه ، وتتسرب الى أعماق نفسه• وكان عنوان القطعة الموسيقية التى عزفها شوبان « أغنية الحياة » وكانت بمثابة لغة أصيلة يفهمها كل قلب • وقد بدا الفنان رقيقا فى عزفه ، عنيفا فى محادثته للقلوب • ووجد « لست » فى تلك الموسيقى ما يشف عن عبقرية فذة تشق طريقا جديدا فى الفن • فما برحا منذ تلك الليلة أن أصبحا صديقين حميمين متلازمين •

أما « شوبان » فى معرض النقد الفنى لهذا الحفل فلنتبينه جليا فيما كتبه فيتس (Fêtis) النقاد اللاذع العنيف الذى لا تأخذه فى الفن شفقة ولا هوادة • قال فى مجلته الموسيقية :

« لقد رأينا هنا فى هذا الحفل فتى كان يمنحنا أعصابه • ولم يكن يترسم فى فنه أنموذجا يقلد فيـه غيره • بل لقد كان بحق شـيئا

جديدا ، وغاية فى الجدة • بل هو فن طالما تمنى المرء الحصول على بعضه • فقد طالعنا بمجموعة نادرة من خواطر جديدة أصيلة لا يمكن أن نجد لها مصدرا أو مرجعا سواه » •

ولكن «شوبان» على ما عرفناه عنه لم يستقبل هذا الثناء بزهو أو غرور ، فهو الفنان المتواضع البعيد عن كل صلف وكبرياء • ولم يكن ما تجمع من ايراد هذا الحفل كافيا لتغطية نفقاته • ولكن لم يؤثر ذلك فى نفس « شوبان » بقدر تأثره من عدم اقبال الشعب الفرنسى على شهود حفله ، مما جعله يفكر بعد عودته من الحفل فى منتصف الليل الى مخدعه فى أن القدر يناوئه ، ثم جالت بخاطره فكرة الرحيل الى أمريكا •

ولكن أنى لشوبان أن يجد المال الذى ينفق منه فى رحلته وفى ديار غربته ، وقد كاد مورد نفقاته ينضب ، وضاق أفق معارفه وأصدقائه ، فأصبح أمره محصورا بين طبقة الفنانين ومواطنيه من البولونيين • وكان يرى أمامه مثلا حيا فى الموسيقار مايربير (Meyerbeer) الذى أصبحت مسرحيته الغنائية « روبرت الشيطان » تدر عليه كنوز الذهب ، وهو — على حد تعبير شوبان نفسه — لم يبلغ هذه النتيجة الا بعد أن أمضى فى باريس ثلاث سنوات ، كان يستنفد فيها النفقة على نفسه من ماله الخاص ، على الرغم من سابق تمتعه بالشهرة قبل ذلك بعشر سنوات •

ولقد ضاق صدر « شوبان » وعيل صبره حتى كشف عن همه فى رسالة منه الى صديقه « تيتوس » قال فيها :

« لقد صرعنى القدر هنا ... انك لتجد فى باريس كل شىء تهواه ... ففى استطاعتك أن تسمر أو تسأم وأن تضحك أو تبكى ، كما تشاء ، دون أن يحس بك أحد ، لأن هنا ألوفا وألوفا غيرك يفعلون فعلك ، والكل يسلك طريقه . وأعتقد أنه لا يوجد بلد آخر يفوق باريس فى كثرة العازفين بالبيان . ولا أعرف عددا من الحمير ، ولا من مهرة العازفين يفوق فى كثرته الموجودين من هؤلاء وأولئك هنا . أنت لا تدرى مدى حزنى لأننى لا أستطيع أن أجد من أبثه آلامى . ولعلك لا تجهل أن التعارف سهل ميسور بالنسبة لى ، ولهذا فانى غارق فى هؤلاء الأصحاب الى الآذان . ولكنى لا أجد واحدا من كل هؤلاء جديرا بأن تتنهد معا ، وأحسب أنى امرؤ غير بقية الناس فى شعورهم . ومن أجل ذلك أتعذب . وكم تمنيت لو أتيحت لى الراحة أستمتع بها ولو يوما واحدا لا أرى فيه وجه انسان ، ولا أتحدث فيه الى أحد ... » .

وكان مسكن « شوبان » الصغير لا يخلو من شخصيات كبيرة تختلف اليه وتزور صاحبه الفنان المغترب . ومن بينهم البرت جرزيمالا والنبيل بلاتر ولست وبرليوز . وكان هذا الأخير عائدا من روما ، وقد ازدحمت فى رأسه المشاريع . كما كان مسكنه قبلة يقصدها الكثيرون من مواطنيه الهاربين من أغلال الاستعباد فى بولونيا ، وهم جميعا شباب فقراء الا من ثروة الوطنية والايمان . فلم يكن « شوبان » يدخر وسعا فى بذل ما يستطيعه لهم ، مما أنضب معينه ، واستنفد ما كان لديه من مال ، رغم المعونة المحدودة التى كان يرسل بها والده اليه .

ولم تكن نفسيته فى ذلك الوقت بأسعد حالا ولا أنضر أملا ،

بل لعلها كانت قاتمة عابسة ، أو لعلها أصبحت فى نظره أمرا ثانويا بعد أن تحطم قلبه وتهدم رجاؤه بما نقضت « كونستانتيا » من عهد حبه وتجاوزها فى الغدر أقصى حدوده ، فقد علم الآن أنها تزوجت من سواه غير عابئة بذلك الحب العنيف الذى صوره « شوبان » فى ألحانه وموسيقاه ، وكان أمله الحلو وغاية رجائه فى الحيـاة . وقد عرف ذلك من شقيقته حينما كتبت اليـه عن « كونستانتيا » تصفها بقولها :

« انى لأعجب كيف يتجرد المرء من الشعور ؟ انها تمثل فى عينى قصرا فخما يجذب اليه الأنظار بينما هو أجوف فارغ خلو من كل شيء . أما الشعور بالعاطفة فان ذلك عندها لا يتعدى الغناء » .

ولكن هل يجدى هذا المنطق الذى تعزيه به شقيقته عن فقدان الوفاء فتخمد نار الجوى فى قلبه المعذب !!!

لم يكن أمام « شوبان » من سلوى ولا عزاء سوى أن يستسلم للبيان فيودعه أشواقه ، ويبثه أشجانه وآلامه ، ويكشف له عن أسرار كتمها عن الناس جميعا وباح بها لأوتاره ، لتفصح عنها بنغمات أبلغ من الكلمات .

وكان يقيم بالدور الأعلى من مسكنه فتاة بارعة الجمال ، دقيقة الشعور ، محبة للموسيقى قديرة على فهم لغتها . فكانت تستمع الى أنغام « شوبان » وتحس لواعج شوقه المنبعثة من خلال ألحانه فتتساءل قائلة : من تلك التى ملأت هذا القلب بكل هذا الشوق ؟

وكان « شوبان » يصادفها على درجات السلم فوقعت بينهما

نظرة ، فابتسامة ، فسلام ، فكلام ... أما الموعد واللقاء فقد التمستهما من « شوبان » ودعته الى زيارتها فى مسكنها . فلم يكن يصغى الى رغباتها المتكررة فى ذلك . وما كان أصدق تعبيره عن نفسه ، واعتداده بنزاهة الفنان الأمين فيما كتبه الى صديقه « تيتوس » اذ يقول عنها :

« انها فتاة متزوجة وانى لست كلفا بأن أزج بنفسى فى تمثيل دور أكون فيه الغارم » .

لعله كان يتخيل أن « شوبان » فى شبابه النضر وفنه الفتى وموسيقاه الساحرة يحاول أن يسرى عن قلبه المكبوت فينتقم من ذلك الغدر بغدر آخر !!ولعله كان يتصور منه أيضا أن يحطم تحت قدميه كبرياء المرأة ، ويثأر لنفسه من تلك التى خدعته ، ولعبت بقلبه لعب الصبى بالكرة . وكان فى مقدوره أن يجد من السعادة الوقتية والحب الحاضر ما تلتئم به جراحه الماضية وحبه الغابر ...

لو كان غير «شوبان» فلعله كان خليقا أن ينحدر الى مثل هذا ، وأكثر من هذا . ولكنه « شوبان » ... بل هكذا يجب أن تكون فضيلة الفنان الأصيل ...

قمة المجد

لقد كان ليل الحوادث مطبقا بظلماته على حياة « شوبان » فمن غربة ،الى فقر ، الى آلام نفسية وذكريات مريرة ، الى عقبات ظن أن القدر يتجهم له فيها ، وينازله حربا لا هدنة فيها ولا هوادة .

ولكن هل يبقى الليل ليلا بلا صباح أبد الدهر ؟...

ان القدر لأرحم بشوبان ، وبكل فنان صبور ، من أن يدعه بين أنياب الكوارث حتى يصير حطاما تذروه الرياح . فقد التفتت اليه العناية الالهية التفاتة كريمة مكنته على حد تعبيره من أن يعبر البحر الخضم الى شاطئه الثانى ، مغالبا الأعاصير والأنواء واللجج الى رحاب الأمان وساحة الاطمئنان ...

فبينما هو يجول فى باريس جولة واذا بالأمير « رادزويل » يلقاه فى صدفة من صدف السعادة المتاحة دون توقع ولا موعد ولا انتظار . هذا هو رسول الرحمة والانقاذ يأخذ بيد الغريق الحائر ليكشف عن نجمه المتوارى فى الضباب فيخرج به الى التألق والانارة فى سماء باريس كلها . فقد كان « رادزويل » فى طريقه الى زيارة الثرى العالمى « البارون روتشلد » فدعى « شوبان » الى مرافقته فى هذه الزيارة التى كانت مفتاح الكنز المفقود لشهرته . فقد كان قصر « روتشلد » نديا يجتمع فيه سراة القوم ، وتلتقى به الطبقة العليا من أرباب الثروة والنفوذ والجاه فى باريس . ولم يكد « شوبان »

يرسل موسيقاه فى أجواء القصر حتى سحر ألباب السامعين ، وسيطر على مشاعرهم ، وتملك أزمة حواسهم .

وبدأت شهرته منذ ذلك اليوم تملأ الآفاق . وتسابق الأثرياء الى دعوة « شوبان » فى قصورهم ومجتمعاتهم . ولم يكن فى قدرته أن يلبى جميع هـذه الطلبات التى أقبلت عليه اقبال السيل المنهمر ، وذلك على الرغم من أنه لم يكن يتقاضى فى مقابل الدرس الواحد أقل من عشرين فرنكا .

ولما اتسعت ثروته انتقل الى منزل أنيق جديد بشارع « شوسيه دى انتين رقم ٥ » وأخذ اسمه يتردد على الألسنة والأفواه . وبدأ فجر ذلك الليـل المظلم الطـويل ينبثـق نوره على حـد تعبـير « شوبان » نفسه .

ان « شوبان » منذ بداية هذه الفترة من حياته أخذ يتسع أفقه بسرعة فائقة ، فما تكاد موسيقاه تصل الى الآذان حتى تصل الى القلوب بسرعة الضوء . فنال بذلك المنزلة التى لا نجد لها وصفا أدق ولا أعمق مما وصف به « لست » موسيقاه حيث قال :

« انها أنسام الحب ، ووردة الربيـع فى الشتاء . وانها لبـاب يوصل الى دنيا غريبة ، كل شىء فيها عجيب . دنيا مليئة بمفاجآت غير مرتقبة . دنيا أحلام وأمانى . ولـكنها أحلام غير كاذبة ، وأمانى تتحقق » .

وعلى قدر ما كان « شوبان » يشعر بانطلاق وتدفق وحرية فى المجتمعات الخاصة ، فيرسل نفسه مع موسيقاه بفنه الساحر ،

شاعرا بتقدير من حوله وتفرغهم بالقلوب والمشاعر لاستماعه ، سيما اذا كان ما حوله من الجو مزدانا بالفتنة والجمال والوجوه المشرقة والثغور الباسمة ... على قدر ما كان « شوبان » كذلك ، فقد كان يكره الظهور فى الحفلات العامة ، وتنقبض نفسه من مظاهرها الصاخبة ، ذات الأذواق المتناقضة ، والمشاعر المتباينة التى لايجمعها فن ، ولا يوحدها رأى . على أننا عندما نصف شعور « شوبان » فى مثل هذه الحفلات فمن الخير أن ندعه هو يحدد لنا قيمة هـذا الشعور وحقيقته . فقد كتب الى صديقه « فرانس » فى ذلك يقول :

« اننى ما خلقت لاحياء مثل هذه الحفلات العامة . ان كثرة الجماهير تخجلنى . وأنفاسهم المتصـاعدة تسبب لى اختناقا . ونظراتهم الفضولية تصيب أعضائى بشلل وكساح . ان عواطفى تنكبت وتتبلد أمام الوجوه الغريبة » .

ومن هذا تنكشف لنا ظاهرة نفسية لشوبان . ولعلها مقياس نحب ألا نهمله فى تكييف حياة الفنانين ومثلهم العليا . وباختصار يمكن القول بأنه عندما يكون هدف الفنان المتلهف على الشهرة ارضاء الجماهير ، فان هدف الفنان الصادق الأمين هو ارضـاء ضميره واقناع روحه . هكذا يحدثنا « شوبان » فى تلك الرسالة الوجيزة الى صديقه فرانس ، فنتبين فيها وفيما سبقها أنه لا يتلمس نزوات العامة من الجماهير ليصنع منها الفن الذى يقدمه اليها ، ويبيعها ما أخذه منها . بل يمضى الى أعماق مشاعره ، وجراحات قلبه ، وآلام نفسه ، ووحشة اغترابه ، وجفوة حبيبه ، وكوارث أمته ، فيخلق منها الفن العبقرى الذى يأسر به الخاصة ويسحر به العامة .

بیان فردریك شوپان

obeikandl.com

ولم يكن « شوبان » يميل الا الى عزف ما تنتجه عبقريته لأن هذا الانتاج صورة لكيانه وصدى لمشاعره . ولم يحل ذلك بينه وبين أن يعزف للناس آثار العبقريات التى كانت تملك اعجابه ، وفى طليعة أصحاب تلك العبقريات باخ وبيتهوفن وموتسارت .

وكان « شوبان » ككل فنان أصيل ، لا ينظر الى المادة الا كوسيلة لرغد العيش ومتع الحياة وتجميل مناظر الدنيا المحيطة به ، فعلى مقدار كثرة دخله كانت كثرة الانفاق . فلو نظرت اليه الآن لرأيته صاحب أجمل عربة فى باريس ، يرتدى أفخم الملابس ، لا يفارقه قفاز أبيض من الجلد النادر ، مجاريا فى كل مظاهر حياته طبقة الأشراف والنبلاء . وقد ازدان مسكنه بأثمن السجاجيد وأفخر الرياش . وامتلأت جوانبه بالأوانى القيمة من الفضة والبللور . ولم يخل فى يوم من السنة على اختلاف فصولها من أندر الزهور وأبهج الورود . وقد أصبح كلفه بالأزهار معروفا لدى جميع أصدقائه وعارفيه ، ولا سيما الفتيات والسيدات ، فكان ذلك يحملهم على ألا يزوروه الا وهم يحملون اليه النادر الظريف منها . وأصبحت مجالسه ملتقى الأمراء والنبلاء والطبقة العليا .

وبدأت السعادة ترف بجناحيها على حياة « شوبان » وتوالت سنوات تسنم فيها ذروة الشهرة ، وبلغ قمة المجد . وغزر انتاجه ، وكثرت مطبوعاته . ففى عام ١٨٣٣ طبع من مؤلفاته الجديدة خمس مقطوعات من « المازوركه » وثلاثى للبيان والكمان والكمان الجهير (الفيولنسل) ، وثلاث مقطوعات « نوكتورن » ، والمقطوعات

الاثنتا عشرة للدراسة الكبرى التى أهداها للموسيقار « لست » وكذلك « كونسرت مى مينير » • وفى عام ١٨٣٤ ظهرت له قطعة « فانتازى » على ألحان بولونية ، ومقطوعة « كراكوفياك » للبيان والفرقة الموسيقية ، وثلاث مقطوعات « نوكتورن » أخرى • و « روندو » مى بيمول ماجير ، وأربع مقطوعات « مازوركه » والفالس الكبير مى بيمول ماجير •

وقد كانت هذه الشهرة بمثابة بعث جديد لصحائف فنه المطوية وجميع آثاره السابقة التى أنتجها فيما سلف من أيامه بوارسو وفينا وليبزج وباريس وغيرها • وأقبل أعلام الموسيقى ومهرة العازفين يتسابقون الى تأدية هذه المؤلفات فى الحفلات العامة ومن بينهم لست وموشيليس (Moscheles) وفيلد وكالكبرنر •

وقد تمتع « شوبان » بحياة هانئة وسعادة وارفة الظلال . لم يكن يقض مضجعه فيها سوى المقيم المقعد من همه وتفكيره فى آلام بولونيا وما حل بها من محن وأرزاء • وقد أورثه ذلك هزال الجسم مع آلام النفس ، حتى قال عنه أوبير (Auber) :

« ان شوبان يعيش فيما يشبه فراش الموت » •

ويحدثنا صديقه وتلميذه جوتمان (Guimann) أنه بينما كان يعزف مرة بين يدى « شوبان » مقطوعة الدراسة الثالثة مى بيمول ماجير ، وهى من أجل ثمار عبقريته ، اذا به ينتفزع فجأة وينتفض انتفاضة العصفور فى شبكة القانص وينهض صارخا وهو يصيح « آه يابلادى !! »

وفى الحق لقد كان اسم بولونيا لا يذكر فى نفسه الا مصحوبا بالآلام المبرحة ، فان قلب هـذا الفنـان الشاب الذى لم يتعـد الرابعة والعشرين من سنه كان مفعما بحب وطنه ، متعلقا بذكرياته الى أبعد مدى • ولئن كانت هذه الآلام مصدر تأثير سيىء فى صحته فقد كانت فى الوقت ذاته مصدر الالهام فى موسيقاه • فهذه العواطف والأحاسيس التى جاشت بها نفسه تحولت بعينها الى تلك الموسيقى التى امتازت برقة التعبير وسمو الشعور • ولعل من أبلغ أوصافها ما قاله المركيز دى كوستين (de Custine) فى رسـالة كتبها الى « شوبان » جاء فيها :

« اننى عندما أستمع الى عزفك يخيل الىّ أننى معك وحدك ، أو على الأصح مع شىء أسمى منك ، أو قل على الأقل مع أسمى شىء فيك » •

أما فيما عدا تلك الآلام النفسية فقد كان « شوبان » فى هذه الفترة من حياته مغمورا بالسعادة ، محوطا بالتجلة والحب والتقدير ، هانئا بأوفر صحة تمتع بها فى مراحل حياته •

كتب صديقه أورلوفسكى (Orlowski) يصفه فى هذه الفترة من حياته قال :

« انه ينعم بموفور الصحة والقوة • ويجتذب اليه أنظار جميع الفرنسيات • أما الرجال فما أشد غيرتهم • وقد لا يكون من العجب أن تعم باريس فى القريب « مودة » استعمال القفاز على طريقة شـوبان » •

* * *

وفى ربيع عام ١٨٣٤ قام « شوبان » وبرفقته صديقه فردناند هيلر (Ferdinand Hiller) برحلة الى مدينة اكس لاشابل (آخن) لحضور مهرجان موسيقى فى تلك البلاد الألمانية الواقعة على نهر الرين • وقد التقيا هنالك بالموسيقار « مندلسون » • وكم كان شديد الاغتباط بلقائهما ، وبخاصة « شوبان » الذى وصفه بأنه نادرة الفلك فيمن شاهدهم من مهرة العازفين بالبيان • وعاد من رحلته تلك الى باريس عن طريق دسلدورف وكولونيا •

وقد اشتدت غبطة « شوبان » وتعاظمه السرور ، فقد التقى عنـد عودته الى باريس بصديق صباه ماتوزنسكى (Matusznski) الذى كان طبيبا فى الجيش البولونى ، وقد استدعى فى باريس أستاذا بمدرسة الطب بها • وسكن فى منزل « شوبان » • وكانت اقامته معه مصدر عزاء وسلوى ، وتجديدا لسعادته الماضية فقد استعاد به مرح الصبا وتندر الشباب ، وألف المجتمعات ، وأنس الى الظهور فى الحفلات العامة •

وفى السابع من ديسمبر من ذلك العام اشترك بدار الأوبرا الايطالية فى حفل أقامه الموسيقار برليوز لحساب قرينته « هنريت سمسطون » المغنيـة الايرلنـدية التى اقترن بهـا من زمن قريب • كما أنه اشترك أيضا فى حفلات عيد الميلاد التى أقيمت فى صالة « پلايل » فعزف مع الموسيقار « لست » على آلتين من البيـان ثنائيا من تأليف هـذا الأخير على فكرة موسـيقية من « مندلسون » •

وفى الخامس عشر من فبراير من السنة التالية (١٨٣٥) اشترك « شوبان » فى حفل موسيقى ، تلاه بعد ذلك حفل آخر أقيم فى الخامس من ابريل مساعدة لأعمال البر فى بولونيا .

ويعنينا أن نتعرف رأى « برليوز » نجم الموسيقى الأوحد فى باريس اذ ذاك أين يقع « شوبان » وفنه الموقع الصحيح فى ميزان التقدير من عظمة العباقرة . وسترى أن هذا الرأى يجلو لنا أن أداء « شوبان » وموسيقاه سيبقيان موضع بحث ومحاولة لاكتناه الأسرار الروحية فى مشاعر الفنان . وهذا الرأى يقفنا على صعوبة المحاولات فى كشف النقاب عن حقيقة ذلك الأداء ، وبخاصة للذين لم يعاصروا « شوبان » المؤلف ، ولم يستمعوا الى « شوبان » العازف حين أدائه الذى كان فيه مؤلفا جديدا .

قال برليوز :

« ان شوبان الموسيقى الماهر والمؤلف المبتكر فنان من طبقة ممتازة . بل انى لا أجد موسيقيا آخر من جميع معارفى أستطيع أن أقارنه به على أية حال . ومما هو جدير بالأسف أنه لا يوجد أحد غير « شوبان » يستطيع أن يؤدى موسيقاه محتفظا بطابعها الخاص ... ان ايقاعه مقرون على الدوام بآلاف التغيرات فى السرعة للكشف عن الأسرار الدقيقة التى لا يعرفها غيره ، والتى يتعذر على انسان غيره وصفها » .

ورغم هذا التقدير المنقطع النظير الذى سجله أعلام الموسيقى فى عصره اشادة بفنه وتقديرا لعبقريته ، فان سواد الجمهور لم

يستطع فى كثير من الأحيان ادراك قيمة هذا الانتاج على حقيقته . مما حمله على أن يعتزم ترك الحفلات العامة بعدذلك زمنا غير قصير على اثر حفل أقامه فى السادس والعشرين من ابريل عام ١٨٣٥ بمعهد الموسيقى بباريس ، وهو الحفل الوحيد الذى لم يقم غيره بهذا المعهد طوال حياته .

وقد بلغت سعادته الروحية أوج كمالها بتعرفه حينذاك بالموسيقار بللينى (Bellini) وقد انعقدت بينهما روابط صداقة وثيقة ، ووجد كل منهما فى صاحبه الخل الوفى المخلص .

كما تعرف فى ذلك الحين الى النبيلة دلفين بوتوكا (Delphine Potocka) وقد كانت فى الخامسة والعشرين من عمرها ، تمتاز بجمال بارع وقد ممشوق ، فى خفة روح ، وحسن تقاسيم . ولقد يخيل لمن يراها أنها هبطت من السماء . وكانت وفرة مرحها تخفف من رهبة مقامها وهيبة مكانتها . ويمكن القول بأن هذه السيدة ذات الجمال المفرط كانت أول فاتنة استولت على قلب « شوبان » فى باريس . وقد تأثر بصوتها الرخيم فكان جزءا من موسيقاه ، وبعاطفته نحوها فكانت بعض فنه . ولقد غنت بمصاحبة عزفه على البيان فكان يحاول أن تتجاوب موسيقاه الممتزجة بصوتها الرخيم مع خفقات قلبه . وقد بادلته النبيلة هذه العاطفة ،وأبدت لشوبان الكثير والكثير من حبها له وتعلقها به . ولكن هذه العاطفة ، وهى عاطفة سماوية اشترك فى صنعها الفن والجمال ، لم يدم حلمها الجميل وآمالها الهنيئة ، فسرعان ما مزقت خيوطها من بينهما تلك الغيرة

العنيفة التى ثارت فى قلب قرين النبيلة « دلفين » فانه ما كاد يلمح بوادر هذه العاطفة حتى تنبهت فيه تلك الغيرة ، وأسرع هو وزوجه لائذا معها بالفرار من باريس ومن فيها الى بولونيا . على أن هذه النبيلة لم يبتعد قلبها عن الفنان ، وان نأت الدار وبعد المزار . وكان من آثار وفائها له هذه الرسالة التى استطاع التاريخ أن يحتفظ بها دون أن تمزقها حوادث الأيام ، فكانت دليلا على استمرار هذا الحب واستقرار تلك العاطفة ، وهى تقول فيها :

« اننى لن أجشمك السآمة والملل بكتابة رسالة مسهبة . ولكن كل ما أريده ألا تنقطع عنك أخبارى . كيف صحتك الآن ، وما الذى تنتوى أن تقوم به فى المستقبل ؟... اننى محزونة القلب لبعدى عنك وتركى اياك وحيدا ... ان وقتى هنا ينقضى بين سآمة وملال . وانى أتحاشى أن يحدث أذى آخر شر مما حدث، فقد نالنى منه الكفاية . وكل ما أقدمه من خير للناس يرتد الىّ شرا . وبايجاز أقول لك ان الحياة فى نظرى تنافر موسيقى لا حد له . يرعاك الله ياعزيزى شوبان ، والى اللقاء ... » .

لقاء أخير

فى صيف عام ١٨٣٥ بلغ « شوبان » نبأ اعتزام والديه السفر الى حمامات « كارلسباد » للاستشفاء . فرغب أن يسبقهما اليها ليكون استقباله لهما مفاجأة بسرور لم يكن فى الحسبان . وقد تم ذلك فى السادس عشر من أغسطس بعد فراق طال أمده خمس سنوات .

وليس فى المقدور تصوير تلك السعادة التى أحاطت نفس « شوبان » من جميع نواحيها . ولعل « شوبان » عجز عن تصويرها فى رسالته التى بعث بها الى شقيقاته بوارسو ، وقد وصف فيها هذا اللقاء بقوله :

« ان فرحنا ليعجز الوصف . لقد حل محل أشواقنا عناق متصل تتوالى فيه مسراتنا . والذى ينقصنا من هذا السرور ، وهو ما نأسف له ، أننا لم نلتق جميعا هنا . ما أعظم نعمة الله علىّ !! ان خواطرى مشتتة . ومن الخير لى ألا أفكر فى شىء غير هذه السعادة التى أسبح الآن فى بحرها ، فهى كل ما أعتز به من كنوز الحياة اليوم . وان الوالدين ما يزالان وهما هما ، الا قليلا مما بدا عليهما من آثار الكبر . وكم يطيب لنا أن نسير معا فى الخلاء متأبطين ذراعى السيدة الوالدة ، متحدثين ثلاثتنا عنكن ... اننا نمضى الأوقات معا فى طعام وشراب واستمتاع بأطيب الأحاديث .

ن العادات التى درجت معها فى صغرى والمعاملة التى نشأت عليها فى طفولتى لا تزال كما كانت . بل ان تلك اليد التى حرمنى الزمان نعمة تقبيلها طويلا ما برحت هى هى ... بل وأقول اليوم اننى فى سعادة مجسمة . فى سعادة حقة . فى سعادة كاملة » .

وكما أن « شوبان » لم يلمس كبير تغير فى حياة والديه ، فقد كان هو فى أعينهما كذلك الابن الذى لم يتبدل ولم يتغير . وقد كان هذا اللقاء بحق مصدر سعادة لثلاثتهم ، ومبعث هناءة استمرت شهرا كاملا ، انقضى كأجمل حلم قصير المدى .

وسرعان ما آذنهم نذير الفراق فى الرابع عشر من سبتمبر . ولقد كانت تلك الساعة فى مرارتها تفوق حلاوة الرؤيا ساعة اللقاء . ولقد كانت تبدو على حقيقتها أشد مرارة ، وأعمق جرحا ، وأعظم ألما ، لو أنهم عرفوا ما يخبئه لهم القدر ، وأتيح لهم أن يقرأوا ما فى صفحة الغيب من أن هـذا هو اللقاء الأخير ، وأن فراقهم منـذ اليوم هو الفراق الأبدى الذى لا يقال معه الى اللقاء ...

خطبة بلا قران

بعد أن ودع « شوبان » والديه توجه الى مدينة درسدن حيث نزل بها ضيفا على أسرة « ودزنسكى Wodzinski » وهى أسرة نبيلة عظيمة الثروة والغنى ، تعد من أسر الطبقة العليا فى بولونيا ، وتمتلك مساحة واسعة من الأرض على مقربة من وارسو . وقد أنجبت هـذه الأسرة ثلاثة من البنين وشقيقة هى أصغر الجميع سنا . وكان الأبناء الثلاثة ممن أقاموا بمنزل « شوبان » الوالد أثناء تعلمهم بوارسو . واذ ذاك كان « شوبان » الصغير رفيق طفولتهم وصديق صباهم . وكثيرا ما كان يختلف الى مزارعهم ليقضى معهم أوقات العطلة المـدرسية . وتعرف فى تلك الآونة بشقيقتهم الصغيرة « ماريا » . ولما شبت نار الثورة فى بولونيا عام ١٨٣١ نزحت تلك الأسرة الى سويسرا ليتثنى لأبنائها استكمال دراستهم بمدينـة جنيف . وفى عام ١٨٣٤ أرسـلت الأسرة الى « شوبان » بباريس تدعوه لزيارتها فى تلك المدينة . ولم يستطع وقتئذ تلبية هذه الدعوة . ولكنه رأى الفرصة سانحة بعد زيارة والديه فى « كارلسباد » فقصد الى درسدن استجابة لدعوة جديدة من هذه الأسرة ، وكانت قد سافرت الى تلك المدينة بجميع أفرادها عدا « أنطون » أحد الأبناء الثلاث وكان قد سافر الى باريس ...

أما « ماريا » ابنة الأسرة ونجمتها الساطعة فقد ناهزت الآن

التاسعة عشرة من سنها . وكان الدم الايطالى المنحدر اليها من سلائل الأسرة المالكة قد صبغها بسمرة فى بشرتها ودعج فى عينيها . وكانت تبدو رشيقة الحركة ، خفيفة الروح ، وسيمة الطلعة ، قسيمة الوجه ، بارعة الجمال . وكانت نابهة فى الفنون ، وقد أخذت من كل لون أحسن ما فيه . فهى عازفة ماهرة بالبيان ، ومغنية ممتازة فى الأداء ، وملحنة قديرة فى النغم ، ورسامة دقيقة فى التصوير . وهى كذلك تجيد التوشية والتطريز . ولقد كان جمالها مبعث الفتنة والاعجاب منذ اكتملت الرابعة عشرة من العمر . وكانت محاسنها متعبة للمأخوذين بها . وقد عرفت ذلك فى نفسها فأخذت تتلاعب وتتسلى باحراق المهج ، فتجذب المعجبين اليها لتردهم عنها . وفى زمرة هؤلاء المعجبين الأمير لويس نابليون صديق الأسرة ، وهو نابليون الثالث امبراطور فرنسا فيما بعد ، وكان يلقبها بعروس القارة السمراء .

وفى ذلك المحيط يحل « شوبان » ضيفا على هذه الأسرة ، وبها تلك الفاتنة التى تسيطر على دولة الفن ومملكة الجمال وقلوب الرجال فى وقت واحد . وقد تكون نظرة « شوبان » الأولى اليها مبعثها الموسيقى ، فقد عرفها منذ حداثتها تلميذة له فى دراسة العزف بالبيان . كما تلقى منها فى باريس بعض آثار تأليفها الفنى ، وأجاب على ما أرسلته اليه بمقطوعة بنى لحنها على فكرة تخيرها من موسيقاها ، وأرفقها برسالة قال لها فيها :

« لقد تخيرت فكرة جميلة من موسيقى ماريا ، ماريا التى طالما لعبت معها فى زمن الطفولة لعبة الاختفاء . والآن أسمح لنفسى

أن أرسل الى الزميلة الغالية الآنسة ماريا لحن ڤالس قصير ، آملا أن يكون موقعه من الرضا والسرور فى نفسك جزءا من مائة مما تركته مقطوعتك من الغبطة فى نفسى والسرور لقلبى » .

وقد تلقت « ماريا » مقطوعة الفنان ورسالته قبل أن يصل هو الى درسدن ببضعة أسابيع . على أنه فى رسالته ومقطوعته لم يزل يتخيلها على مثال ما كان يشهدها عليه فى الصغر . أما الآن فقد راعه شيء آخر حين وقع عليها نظره بعد هذا الأمد الطويل . فقد شاهد اكتمال أنوثتها ، وشدة جاذبيتها ، وفاتن جمالها .

وسرعان ما ارتفعت الكلفة ، وقويت الألفة . وأصبح عاديا أن تخرج « ماريا » يصحبها « شوبان » فى صبيحة كل يوم للنزهة على شاطىء نهر « البا » . فاذا أدركهما النصب تفيآ ظل شجرة ، أو أمضيا بعض الوقت فى زيارة أحد المتاحف ، أو رؤية بعض المشاهد . وهما فى هذه النزهات الصباحية المتكررة المتوالية يخفق قلباهما معا بميل خفى وعاطفة مكبوتة .

وكان يصحبها مع الأسرة كل مساء لزيارة عمها ، وهو شيخ كبير قد غادر بولونيا ابان الثورة . وكان آخر ما تقلده من المناصب الرفيعة رياسة مجلس الشيوخ بها . وهو الآن فى شيخوخته ما زال رجلا واسع الثراء يعيش فى درسدن عيشا رغدا ، قانعا فيه من المجد بما مضى من الذكريات وما يحمله من الأوسمة . وكان من عيوبه — وكفى بذلك عيبا — فقدان الشعور بحب الموسيقى . فلم تكن ألحان « شوبان » وهى تدوى فى منزله بأنبل العواطف

وأجل المشاعر لتبلغ من نفسه أى تأثير • وانما كان يستيقظ فيه تأثر المحنق المغيظ من « ماريا » ابنة أخيه كلما رآها ترسل نظرات الاعجاب الى الفنان العالمى الذى لم يكن جديرا فى نظر هذا الصلف المختال بلقب من ألقاب المجد سوى أن يدعوه بصانع المازوكة • وكان يقظا الى مايتبادله « شوبان » و « ماريا » من لحظات تدل على حب كامن وميل مختبىء • وكان لهما بالمرصاد ، مهما حاولا اخفاء ما بينهما عن الجميع • وقد أزعجه وأقض مضجعه أن يرى هذه العلاقة تنمو وتزداد ، حتى صرح لزوجة أخيه بقوله :

« انه فنان محترف لا مستقبل له • ولا يمكن أن يمر بخيالى مصير ابنتك الى هذه النهاية » •

أما الأم فكانت تجيبه فى ابتسامة هادئة : « انهما صديقان فى طفولتهما ، ومنذ نعومة أظفارهما » •

فاذا أراد الذئب العجوز أن يستثير حفيظتها ، ملوحا بشبح المستقبل المخوف قالت له : « انى أعده أحد أفراد الأسرة • وهو فى منزلة يتعادل فيها مع أبنائى الثلاثة أنطون (Anton) وفيلكس (Felix) وكازيمير (Kasimir) تلاميذ أبيه • وعلام نسىء الظن بشاب نبيل الشعور ، رقيق الاحساس !! » •

أما « شوبان » فقد كان يجد متنفسا لهواه حين يجتمعان معا الى البيان أو حين تجمعهما النزهات السعيدة • وقد أطلق على كلا الأمرين « دويتو (ثنائى) الحب » • وقد استمرت هذه النزهات برغم معارضة العم •

ولم يلبثا فى نشوة هذا الهناء أن أزعجتهما ساعة النوى منذرة برحيل « شوبان » ونزوحه عن فردوس غرامه . ففى صبيحة أحد أيام سبتمبر نزل « شوبان » للمرة الأخيرة الى البهو فى انتظار محبوبته « ماريا » . فأقبلت عليه وقد انتزعت من باقة الزهور وردة الى الحبيب الذى ينتظرها . وكأنما أرادت ساعة الكنيسة أن تسجل الزمن فأرسلت احدى عشرة دقة انطلق طنينها فى الفضاء كأنها صيحات نذير الفراق . أما « شوبان » فقد جمد فى مكانه شاحب اللون ، مسلوب الفؤاد ، شارد اللب . وقد طغت العواطف فى نفسه على كل قول فلم ينبث بحرف واحـد ، بل قصد الى البيان يستلهمه ما عجز عنه اللسان من التعبير فى مقطوعة « ڤالس » فريدة رائعة ، أطلقت عليها « ماريا » بعد ذلك اسم « فالس الوداع » . وقد دون الفنان بنفسه تلك المقطوعة وأهداها اليها فيما لا يزيد على كلمتين ، تاركا بقية التعبير للموسيقى فكتب : « للآنسة ماريا » . وقد احتفظ « شوبان » بقدسية هذه الذكرى ، وضن بنشر هذه المقطوعة طوال حياته ، ولم تنشر الا بعد وفاته . وهى فى مجموعة مؤلفاته « ڤالس لابيمول ماچير مصنف ٦٩ رقم ١ » وهى المنشورة فى الصحيفة المقابلة مصورة عن خط يده مع الاهداء .

أما ما تصوره هذه المقطوعة وتترجم عنه فهى همسات حبيبين تقاطعها دقات ساعة البرج ، وتنهدات هوى عميق يعلوها صخب الشارع وضجيج الطريق . وقد وصف الموسيقار « شومان » هذه المقطوعة حين سمعها بقوله : « انهـا عواطف انسانية عميقة تنطق بغير لسان » .

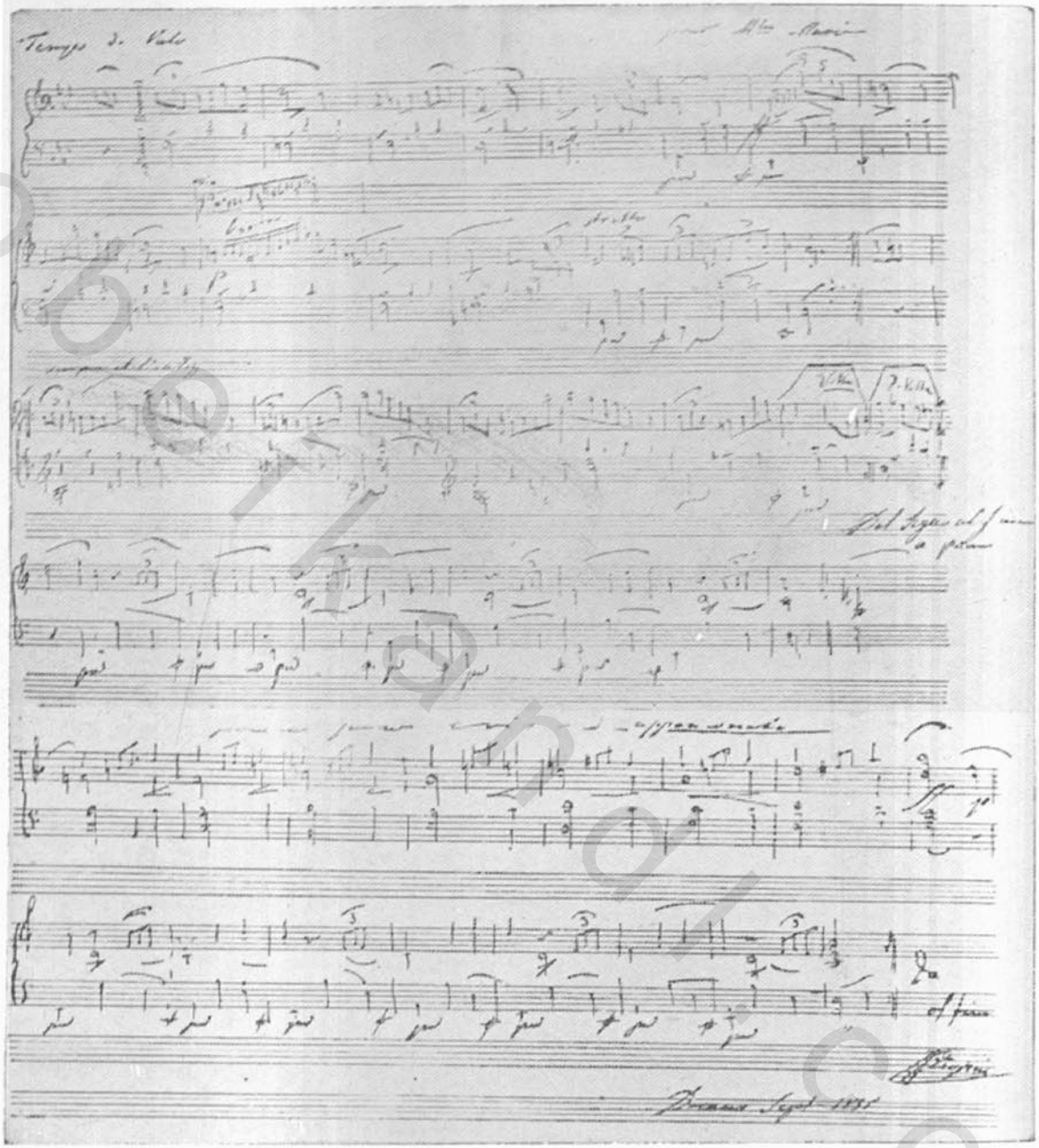

تدوين شوپان لمقطوعة الڤالس

المهداة الى ماريا ودزنسكى (مصنف ٦٩ رقم ١)

وقد احتفظ « شوبان » بتلك الوردة ، التى قدمتها اليه « ماريا » تذكارا لحبها ، الى نهاية حياته .

وفى السادس والعشرين من سبتمبر غادر درسدن قاصدا باريس ، مارا فى طريقه بمدينة ليبزج حيث التقى مرة أخرى بالموسيقار « مندلسون » الذى قدمه الى الموسيقار « شومان » والى ڤيك «Wieck» والد العازفة الشهيرة « كلارا » . وقد أعجب « شوبان » بعزفها بالبيان أيما اعجاب حتى قال عنها انها الفتاة الألمانية الوحيدة التى تستطيع تأدية موسيقاه . وقد أمضوا جميعا أهنأ الساعات بين أروع العزف وأعذب النغمات .

عاد « شوبان » الى باريس ، وأقام بها منطويا على نفسه ، غارقا فى ذكرياته . وهو يعيش بين موسيقى يودعها أسرار قلبه ويبثها مكنون شعوره ، وبين رسائل يخط فيها بقلمه أشجان هواه .

ولا يعوزنا أن نستطلع رأى « ماريا » وأسرتها فى « شوبان » ومدى تعلق الجميع بمودته ، وتأثرهم بفراقه ، فقد احتفظ لنا التاريخ بهذه الرسالة من « ماريا » الى « شوبان » على أثر عودته الى باريس . فلنستمع اليها تقول له :

« انى لأعلم أنك لا تميل الى تحرير الرسائل ولا الى تسلمها . ولكنى أنتهزت فرصة سفر السيد « سيشوفسكى Cichowski » لأنبئك بما حدث من أخبار درسدن بعد سفرك . وهكذا ترانى لا أزال أضايقك ، ولكن ليس بعزفى على الأقل ... انك حين غادرتنا يوم الأحد تفرقنا جميعا ، والحزن يغمر أفئدتنا ، والدموع

تترقرق فى مآقينا . وانفرد كل منا بنفسه فى البهو الذى لم يبارحنا الشعور بأنك كنت معنا فيه منذ لحظات . وعاد والدى على الأثر وقد آلمه أن لم يكن فى استطاعته وداعك . كما أخذت والدتى تذكرنا فى كل لحظة بعمل كان يؤديه ولدها الرابع « فردريك » كما تسميك . ولشد ما جلس شقيقى « فيلكس » محزونا منقبض الصدر . بينما حاول شقيقى « كازيمير » أن يتندر على عادته . ولكن الدعابة كانت تتعثر على شفتيه ، فلم يستطع أن ينطق بواحدة دون أن يختنق صوته بالبكاء . وقد أخذ والدنا يحاول أن يتسلى بمنظرنا ويضحك . ويقينى أنه لم يكن يصنع ذلك الا خوفا من أن يبكى هو الآخر أمام أعيننا . ولما حضر مدرس الغناء كان موضوعنا غير موضوعه ، وشأننا غير شأنه ، فلم يجد بدا من تعطيل درسه . لقد كان اسمك على أفواهنا عماد كل حديث . وألح على « فيلكس » راجيا أن أسمعه مقطوعة الفالس التى أهديتها الى حتى نستمتع فى الاستماع اليها بذكرى شقيق رحل عنا . ذهبت بنسخة هذا الفالس للتجليد فدهش الوراق ، وهو رجل ألمانى . من اهتمامى بطلب التجليد الفخم لورقة واحدة . ان أحدا منا لم يستطع تناول الطعام . وقد كان كل منا يثبت نظراته صوب المقعد الذى كنت تجلس فيه على المائدة ، ومن ثم الى الركن الذى كان ينتحيه « فريتس »[1] . ولا يزال المقعد الذى تعودت الجلوس عليه باقيا فى مكانه ، وظنى أنه سيظل كذلك ما دمنا مقيمين فى هذا المسكن . وحين أقبل المساء مضينا الى منزل عمتنا التماسا للسلوى

(١) صيغة التصغير لاسم فردريك .

فى الليلة الأولى من غيابك . ثم عاد بنا والدنا وهو يقول ان المنازل لدينا فى الوحشة سواء ، وان الألم ليتجدد فى كل مكان نحل به . اذا كان شقيقى « أنطون » فى باريس فرجائى أن تصل مودته فانك لا تعلم مدى صداقته لك . انه صديق وفىّ نادر . انه طيب القلب كثيرا ، ولكنه غاية فى الاهمال . انه لا يهتم بذكر شىء ، وان فعل ففى النادر ...

أما أنت فاذا حدثت المعجزة ورأيت أن تكتب ، وألا تزيد رسالتك على قولك كيف حالك ... انى بخير ... ليس عندى متسع من الوقت للكتابة ... فكل ما أرجوه أن تضيف الى هذه الجمل القصيرة الاجابة عن هـذا السؤال : هل ابتدعت لحنا جديدا ؟... وفى امكانك الجواب فقط بنعم أو لا . لقد تلقيت أغنيتك التى مطلعها « لو كنت أنا الشمس الساطعة فى السماء لما أرسلت ضيائى الا اليك وحدك » . ولم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لأدائها لأنها لك وأخشى أن يدرك من يسمعها منى مبلغ ما ينتابنى من التأثر الذى ينم عما فى قلبى ...

ولقد نأسف جميعا لأن اسمك لم يكن « شوبانسكى » ليحمل فى مقطعة الأخير رمز تبعيتك لبولونيـا . اذن لانقطعت ألسنة الفرنسيين فى منازعتنا شهرتك ، زاعمين أنهم مواطنوك ... أحس أننى أكتب أكثر مما ينبغى مدركة أن وقتك ثمين ، حتى لأحس بأننى سارقة له حين أطلب اليك أن تقرأ هذا اللغو الذى أكتبه ، وان كنت موقنة أنك لن تستوعب قراءة الرسالة كلها ، بل سيختفى

خطاب « ماريا » الصغيرة فى ناحية ما بعد أن تمر فيه على بضعة سطور • وهذا ما يخفف علىّ لومى لنفسى ، ويقلل عتبى لها على اغتصابى لوقتك » •

وقد أرسل اليها مع جواب هذه الرسالة ما كان ينتجه من مؤلفات •••

وبدأ عام ١٨٣٦ يحمل طابع حبه لماريا • ومن انتاجه فى تلك الفترة مقطوعته « كونسرت فامينير » ومقطوعته « البولونيز الكبرى » للبيان مع مصاحبة الفرقة الموسيقية ، وكذلك « بالاد صول مينير مصنف ٢٣ » • وكلها تحمل آيات هذا الحب • وكان له من ذلك قوة تحفزه على مواصلة جهوده الفنية ، كما كان ذلك حافزا على غير ما تعوده من الاقتصاد فى النفقات ليتمكن من السفر مرة أخرى للقاء « ماريا » •

وقد رفض أن يلبى دعوة ملحة تلقاها من « مندلسون » لحضور المهرجان الموسيقى فى دسلدورف ذلك العام ، وأخرى تلقاها من « شومان » لزيارته • ولكنه لبى دعوة العاطفة القاهرة وغادر باريس فى شهر يوليه فى العام نفسه (١٨٣٦) لمقابلة أسرة « ماريا » فى حمامات « مارينباد » ، وقد بلغها فى الثامن والعشرين من هذا الشهر • ولم يحضر من الأسرة الى هذه الحمامات غير « ماريا » ووالدتها • ولم يحضر الوالد ولا الأشقاء ، وبذلك أصبح الجو صافيا ، وخلا مما يعكر صفو سعادته • ورسمت له « ماريا »

فى هذا الوقت صورة بيدها . وأمضيا شهر أغسطس فى نزهات رائعة وموسيقى ممتعة .

ولما رغبت السيدة وابنتها العودة من مصيفهما الى درسدن طلبتا الى « شوبان » أن يصحبهما اليها قبل عودته الى باريس . وكانت الثمرة الفنية لهذه الرحلة أن صنف مقطوعتين تعدان من أروع مقطوعات دراساته وهما مصنف ٢٥ رقم ١ ، ٢ ثم أغنية الخاتم ، وهى أنشودة كأن مؤلفها الشاعر كان يرسل فى طيات أبياتها نبوءة المستقبل المنتظر لشوبان فى غرامه هـذا . ففيهـا يقول : « لقد كنت أحبك دائما ولكنك أصبحت زوجا لرجل آخر » .

وفى اليوم التاسع من سبتمبر حين هبت أنسام الأصيل تحمل عطر الأمل الندى تقدم « شوبان » الى « ماريا » وقد بدت عليه أمارات الارتباك . كأنما هو مقبل على أمر جلل . وهمس اليها مسائلا عما اذا كانت ترضى به زوجا . فأومأت اليـه « ماريا » بما يدل على القبول . وتلقت والدتها أمر هذه الخطبة بالرضا ، مشترطة أن تظل طى الكتمان الى حين ، حتى تمهد لقبولها عند زوجها . وهى وان كانت تدرك مدى البون الشاسع والفارق الكبير بين أسرتى الخطيبين من حيث الجاه والثراء ، فهى ترى أن ليس ثمت ما يحول دون قبول زوجها لهذه الخطبة سوى ضعف صحة « شوبان » ، فقد بدت عليه دلائل هذا الضعف حتى لقد راجت شائعة فى بداية هذا العام تذيع نبأ وفاته . وقد نشرت احدى صحف وارسو فى الثامن من يناير من العام المذكور تقول :

« نريد أن نعلن للأصدقاء ولجميع المعجبين بالفنان العبقرى « فردريك شـوبان » أنه لا صحة لمـا أذيع فى الأيام الأخـيرة عن نبأ وفاته » .

وقد نشأت هذه الشائعة عن خطأ وقع فيه « شوبان » نفسه فقد أصيب بباريس فى نهاية عام ١٨٣٥ بانفلونزا حادة ألزمته الفراش ، فقطع رسائله عن أهله وذويه فى وارسو حتى لا يزعجهم بأنبـاء مرضـه . فكان ذلك مصـدرا للقلق ومبعثـا لاثارة هذه الشائعـة . وقد حدث لسوء طالع « شـوبان » أن والد « ماريا » كان بوارسو حين خاضت الأنباء حول هذه الشائعة بين مصدق ومكذب ، فكان يتردد على أسرة « شوبان » ليسأل والده عما اذا كان قد ورد اليه من « فردريك » ما يتضمن أخبارا عن ولده « أنطون » شقيق « ماريا » .

وهذا يوضح لنا السبب الذى من أجله اشترطت والدة « ماريا » فى قبول « شوبان » خطيبا لابنتها أن يراعى حالتـه الصحية ، اذ يتوقف عليها كل شىء فى أمر هذا القبول . وقد أوصته أن يتجنب السهر المضنى فى « صالونات » باريس . وختمت تلك الوصية بقولها له : « وانى أباركك من أعماق قلبى كأم لك » .

وفى اليوم الحادى عشر من سبتمبر عام ١٨٣٦ ، وعقب توثيق هذه الخطبة بيومين غادر « شوبان » درسدن ، وهو مملوء بالثقة والأمل فى سعادته المستقبلة ، مارا فى طريق عودته الى باريس بمدينة ليبزج حيث قضى يوما ممتعا مع الموسيقار « شومان » .

وما كاد يستقر بالعاصمة الفرنسية حتى ألهته بأجوائها الصاخبة عن الوفاء بما أخذ به نفسه من رعاية صحته بالتبكير فى النوم والاقلال من السهر والاجهاد . وتابع حياة الاستهتار ، وغمره التيار الذى لم يستطع مغالبته . ولم يغب علم ذلك عن أسرة « ماريا » فقد حدث فى تلك الآونة أن قامت بزيارة أسرة « شوبان » فى وارسو . وقدمت « ماريا » اليها الصورة التى رسمتها بيدها للفنان . وقد كتبت والدة « شوبان » الى ولدها تقول :

« يوسفنى أن والدة « ماريا » أخبرتنى عند زيارتها أنك لم تحفظ كلمتك التى قطعت بها العهد على نفسك » .

وهى تنوه فى ذلك بعدم ابقائه على صحته . وهذا يدل على مبلغ اهتمام الخطيبة وأسرتها بشئونه ، واستطلاع خفايا حياته فى باريس . وذلك من حقها بعد أن قبلت ارتباط مستقبل فتاتها الوحيدة النادرة فنا وجمالا وثروة ونبالة بيت وأصالة محتد ، بمستقبل هذا الفنان . وهى لا تطلب اليه سوى أن يعيش موفور الصحة كى لا تعيش معه « ماريا » ممرضة بائسة أكثر منها زوجة سعيدة . وفى الحق لقد ظل « شوبان » متلافا لصحته حتى عاوده مرض الانفلونزا الحادة مرة أخرى تحت عبء الشتاء القارص فى نهاية عام ١٨٣٦ وألزمه الفراش .

ثم بدأ شبح الحقيقة المرة يتجلى أمام والدة « ماريا » . وأخذت ترجح مصلحة وحيدتها فى ميزان هذا الزواج الذى أصبح مهددا غير ميسور الهناء . فأخذت تفكر فى خطة الانسحاب من هذه

الخطبة ، ولكن فيما يليق بمثلها من لطف وأدب • فبـدأت تهمل الاجابة على رسائله وان استمر تبادل الهدايا فى المواسم والأعياد •

وفى الخامس والعشرين من يناير عام ١٨٣٧ وجهت اليه خطابا ينم فى فتوره عن قلوب تغيرت ، وحال تبدلت • فقد تحاشت أن تنوه فيه بشىء عن الخطبة ، أو حتى عن برنامج الأسرة فى ربيع ذلك العام وصيفه •

ولم تكن رسائل « ماريا » خيرا من ذلك • فهى على ندرتها وايجازها عديمة الروح ، خالية من لغة العاطفة ، وحديث الشعور •

فهل أدرك « شوبان » أن فى المسألة شيئا جديدا يشف عنه تغير اللغة وتبدل الأسلوب ؟ هل دله خلو العبارات من الوجد والهوى عن خلو القلوب منهما ؟ هل تبين من تلك الرسائل التى أغفل فيها التنويه برحلات الربيع والصيف أن تلك الأسرة لم يعد الجوى وطيف الأمل يدعوانها الى التشوف اليه والرغبة فى ملاقاته ؟

لم يدرك « شـوبان » شيئا من ذلك • فهو الفنان البرىء ، سليم دواعى الصدر ، الذى لم تتسرب الى نفسه الوساوس والظنون • والفنان يعيش فى عالم ملائكى ، لا تحوم حوله الشكوك والريب ، ولو أن دلائلها بادية ظاهرة للعيان • وليس ذلك لنقص فى ذكاء الفنان ، أو قلة فى تعمقه ، ولكن لأنه فى صفاء المؤمن ، وسمو روح العبقرى ، بعيد عما يكون فى الطبائع البشرية من زيغ والتواء • وعلى هذا فقد رأينا « شوبان » يدفعه وفاؤه لماريا الى سؤال

الأسرة عما تنتهجه فى برامج رحلاتها وتنقلاتها ، ومتى وأين يمكن أن يجمع بينهما اللقاء .

ولكن « شوبان » وان فاته أن يتنبه الى ما كان يخبئه له القدر فيما أشارت اليه تلك الرسائل المقتضبة ، لأنه لم يكن يدين فى حياته بالحيلة والدهاء وسوء الظن ، فقد كان لزاما عليه بعد ذلك أن يدرك من تكرار هذه الحالة وتكشفها رويدا رويدا أن هذه الخطبة قد انفصمت عروتها ، وأن تلك الأمنية التى ولدت فى كتمان قد انطوت فى كتمان دون أن تبدأ باعلان أو تتم بقران .

ويالها من صدمة عاطفية رهيبة ، وجرح نفسى عميق الأثر ، قلما يدرك غوره وألمه الا من قاسى مثل ذلك فى حياة كحياة « شوبان » . ولقد عبر عن تأثره هذا أصدق تعبير حين جمع رسائل « ماريا » وضم اليها الوردة التى أهدته اياها فى درسدن ، ووضعها جميعا فى حزمة واحدة كتب عليها « آلامى » . وقد عثر على هذا الأثر بعد وفاته .

ولئن كان بعض المؤرخين قد التمس المعاذير لأسرة « ماريا » باعتلال صحة «شوبان» مدللين بما وقع للفنان من الأحداث فى مستقبل أمره ، على أن الأسرة كانت بعيدة النظر يوم ضنت عليه بوحيدتها المتربعة على عرش الجمال والمال . نقول اذا كان بعض المؤرخين يبرز موقف الأسرة على هذا النحو فان من بين محققيهم من وضع « ماريا » موضعا مشينا ، يحوط تاريخها بظلمات من الريب والشائعات . فقد قالوا ان هذه الفتاة ، التى لم تتجاوز تسعة عشر

عاما من سنها ، والتى خلبت لب « شوبان » وبادلته العاطفة ، كانت تلعب نفس هذا الدور مع الشاعر « سلوڤاكى Slowacki » الذى تعرفت اليه فى چنيف ، وقد أخذت تطارحه ما كانت تطارح به « شوبان » من هوى ملح وعاطفة ثائرة فى درسدن • وقد أثارت من « سلوڤاكى » شاعريته الملتهبة يوم ألقت به الى حضيض الهجران يعانى ألم الفرقة فى چنيف ، كما أثارت من « شوبان » موسيقيته الحارة حين قذفت به الى ظلمات النوى فى مدينة النور • فيالها من حسناء لعوب ، وضعت على المائدة قلبين انتزعتهما انتزاعا من شاعر وموسيقار • ولعلها لعبت بقلوب أخرى على مائدة هواها •

على أن « ماريا » قد تركت كل هذه القلوب المحترقة من ورائها لتنعم بالحياة الزوجيـــة فاقترنت عام ١٨٣٧ بالنبيل « چوزيف سكاربك » • ولعل القدر كان عادلا يوم ثأر لتلك القلوب من « ماريا » فلم يدع لها من سعادة الحياة الزوجية عدا سبع سنين انقصمت بعدها عقدة هذه الرابطة •

أما « شوبان » فقد هم بالرحيل عن باريس متخفيا ، ليتمتع فى ظل هذا التنكر بقليل من الهدوء فى ثورة آلامه التى لا تبارحه • فســافر فى رحلة قصيرة الى لنــدن مع صــديقه كميل پلايل (Camille Pleyel) أحد الناشرين وصاحب مصانع البيان المشهورة • ولكن مما يثير الشجن أن ميكروب السل الذى كان كامنا فى جسمه بدأ يرسل طلائعه منذ الآن •

فردريك شوبان (مدالية صنعت عام ١٨٣٧)

obeikandl.com

وقد كان يريد أن يتابع الرحلة من لندن الى هولندا ثم الى ألمانيا ، ولكن حالته الصحية حملته على أن يبادر بالعودة الى باريس فى شهر أغسطس .

وقد كتب الموسيقار « مندلسون » فى الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٨٣٧ من لندن يقول انه استوثق من وجود « شوبان » بها منذ وقت قريب ، ورغم تجنبه للأندية والمجتمعات والمجالس العامة ، فانه لم يستطع أن يخفى على الناس أمره فما كاد عزفه ينبعث بسحر نغماته لأول مرة بتلك المدينة فى أحد مجالسها الخاصة حتى نم العزف عن صاحبه . وقد يمكن للاسم المستعار أن يحتجب وراءه الفنان لو لم يكن فى مثل مكانة « شوبان » .

وقد يكون من الطريف فى هذه المناسبة ألا تفوتنا المقابلة بين الفنانين الخالدين « شوبان » و « سلوڤاكى » . فان من أعاجيب القدر وغرائب المصادفات أن تتشابه حياة كليهما فى تماثل يدعو الى اطالة التعمق والتفكير . فقد كان مولدهما فى زمن متقارب ، وكذلك موتهما فى عام واحد ، وبنفس المرض العضال الذى لم يبق على شبابهما الغض وفنهما الشاب . وقد كانا كذلك متشابهين حتى فى الخلقة . واجتمعا على حب فتاة واحدة هى « ماريا » كانت سببا فى اثارة موسيقية الموسيقار وشاعرية الشاعر . وهما فى انتاجهما الفنى متقاربان متشابهان . تجمعهما جنسية

واحـــدة . وقد التقيا معا وهما غريبان فى عام ١٨٣٨ فى النـــادى البولونى بباريس ...

وهكذا تأتى الأقدار بمالا تحيط به الأفكار فنرى موسيقيا وشاعرا يتشابهان مهدا ولحدا ، ويتكافآن فنا وفكرا ، ويتماثلان وطنا واغترابا ، ويتحاكيان حبا وعذابا .

وليس بغريب على قدرة الله أن تتشابه الحوادث التى تكرر عبر الحياة ...

شوپان وجورج صاند

لازم « شوبان » مسكنه ولاذ فيه بالسكينة والهدوء ، فلقد كان يوما عبوسا ممطرا من أيام باريس المكفهرة . وكان منظر الطبيعة هكذا فى قطوبها وحلوكتها مما يؤثر فى أعصاب « شوبان » ويحدث له ضيقا فى صدره . كما أن الرطوبة فى مثل هذا المناخ وذلك اليوم مما كان يحدث تأثيرا سيئا فى صحته . فلم يزر أحدا فى ذلك اليوم ولم يزره أحد حتى ولا وحيه الموسيقى . وأراد فى المساء أن يفر من وحدته ويتخلص من هذه السآمة الجاثمة على روحه المستوحشة فقصد قصرا لاحدى النبيلات ، وهو من جملة تلك القصور التى كان يكثر الترداد على صالوناتها ، وهى يومئذ ملتقى أعلام الفن وأقطابه من موسيقيين وشعراء وكتاب ، كما تضم الطبقة الممتازة من الأشراف والنبلاء وذوى المكانة .

مضى « شوبان » الى القصر . وبينما هو فى صعوده درجات السلم أحس كأن ظلا خفيفا يلاحقه ، كما امتلأ الجو بأريج البنفسج الذى ارتاحت اليه نفسه ، ودب اليها دبيب النشوة والانتعاش . فلما أقبل « شوبان » حيى صاحبة القصر ، ورأى فى ضيافتها كثيرين ممن يعرفهم ، كما التقى بوجوه جديدة لم يسبق له رؤيتها ... وانقسمت هذه الندوة الى جماعات أخذت كل واحدة منها تسمر فى خفة ورشاقة . وقد طافت أحاديث هؤلاء

السمار بالمسرح والفن والأدب والسياسة • ولما كان « شوبان » فى تلك الليلة أكثر ميلا الى الاستماع منه الى التحدث فقد اتحى ناحية فى أحد أركان البهو ، واكتفى بما يصل اليه من قطوف الأحاديث ، وما تقع عليه نظراته من وجوه الحسان اللاتى ازدان بهن الحفل •

وبعد أن انصرف أكثر الحاضرين ، ولم يبق سوى أقلية المقربين الى سيدة القصر ، نهض « شوبان » الى آلة البيان يبثها ما كان يكتمه من حديث نفسه ويفضى اليها بما كان يخفيه من آلام قلبه الجريح • وراح يقص بلغة الأنغام قصصا بارعا ، ويرسل من آيات ابتكاره ابداعا رائعا •

أما المستمعون فقد حبسوا أنفاسهم ، وأقبلوا بأسماعهم ، بل بقلوبهم على ذلك الفنان الذى نسى نفسه واستغرق فى موسيقاه • ولما أتم العزف وثاب الى نفسه ، رفع عينيه ، واذا به يرى سيدة تبدو فى ملابس غير مبالغ فيها ، وقد نسيت هى الأخرى نفسها ، واتكأت باحدى يديها على آلة البيان ومضت ترشق الفنان بنظرات من عينين سوداوين متأججتين تحجبان من ورائهما ما يشبه حمرة الجمر خلف سواد الفحم • وكأنما كانت بنظراتها المصوبة كالسهام تحاول أن تستشف روحه ، وتقرأ مافى أعماق نفسه • فلما شعرت بأنه قد انتبه اليها ، ألقت على هذه المفاجأة ابتسامة خفيفة •

وعاد الفنان وشيكا الى مجلسه من البهو • ولم تكن الا برهة حتى تنسم عبير البنفسج ، مقبلا فى حفيف الملابس الحريرية •

انها لتلك التى تبعه ظلها على السلم ، وهى تلك التى كانت منذ لحظات متكئة على البيان ترمقه بنظرها وسمعها • وهى الآن فى صحبة صديقه الموسيقار « لست » الذى قام بدور التقديم والتعريف • وقد أطرت السيدة فن « شوبان » وأثنت على مهارة عزفه وبراعة تأليفه ، وتعمقه البعيد ، مع دقة فى التعبير ، وتجديد فى الابتكار ، وسحر فى النغم ، يملك من النفس قيادها • وقد أسمعته آيات الثناء والاطراء فى أسلوب فريد ، وبيان غير مألوف ، كان لابد أن ينفذ الى شغاف قلبه دون استئذان ، فقلّ أن بلغ أحد فى صدق التعبير عن موسيقاه ما بلغته فيما صاغته من عبارات شعرية سامية ، وأسلوب نادر فى البلاغة واجادة فى الوصف ، وقدرة على التصوير • وليس هذا وأكثر منه بمستبعد على هذه السيدة فقد كانت أشهر كاتبة تحت سماء فرنسا كلها ، وهى « أورورا دوديفان » التى كانت شخصيتها اللامعة لا تخفى على أحد حين تنشر قصصها ومؤلفاتها تحت اسمها المستعار « جورج صاند George Sand » •

ولما عاد « شوبان » الى منزله وآوى الى فراشه ، كانت كلماتها التى حيته بها كالصدى المتردد فى همس الليل ، فهو يستعيدها ويستوعبها مراجعة واستذكارا • وقد أعجبه من تلك السيدة عمق تفكيرها ونباهة شأنها فى الأسلوب وروعة البيان • على أنه وان كان قد أعجب بروحها وقيمتها المعنوية فان مظهرها الخارجى لم يبلغ من نفسه تأثيرا ذا خطر • يدل على ذلك ما صرح به لأحد أصدقائه فى طريقهما الى المنزل بقوله :

« ان چورج صاند هـذه السيدة لا تتمتع بمنظر جـذاب حتى ليسأل المرء نفسه أهى امرأة حقيقيـة ؟ انى لأرتاب فى أنوثتها ... » .

وكما يصفها أيضا فى احدى رسائله الى أبيه بقوله :

« لقد تعرفت الى احدى الشخصيات البارزة البعيدة الصيت ، وهى السيدة « دوديفان » التى اشتهرت باسم « چورج صاند » . ولكن وجهها لا يثير فى نفسى أي شعور بالجاذبية اليها . ولم أر فيه مايسرنى اطلاقا ، بل على النقيض أحس فيه بشىء ينفرنى منه » .

ثم أخذت هذه المقابلات تتوالى بينهما فى هذا القصر وغيره من « صالونات » باريس التى كانا يلتقيان بها مع من تضمهم تلك القصور من أعيان الطبقة الممتازة ونجوم الفن فى تلك المدينة . وكلما تكررت المقابلة بين الموسيقار والكاتبة توثقت عرى الاتصال بينهما ، وخفت دواعى النفور منها فى نفسه ، بقدر ما تجلت له فيها مزايا تزيده اعجابا بها وميـلا اليها . وكذلك « چورج صاند » بالنسبة الى « شوبان » فقد كانت عبارات الاطراء والثناء من أعماق قلبها ، حتى نزع بها اليه حب أكيد ، وغرام ثائر ، ربما كان له الفضل فى تجميل مزاياها ، واخفـاء ما كان يبدو فى عينيـه أنه رجولة فى أنوثتها . وشهدها بعـد ذلك ، فاذا بها كما يجب أن تكون الأنثى التى يغمرها الخجل ويعلوها الحياء .

وكانت « چورج صاند » وقتذاك فى الثالثـة والثلاثين من عمرها . وقد عرفت بأنها شخصية نفاذة قاهرة ، ما صارعت رجلا

چورچ صاند

چورچ صاند

oberkandl.com

الا صرعته . ولم يثبت أنها هزمت مرة فى معركة غرامية أستبكت فيها مع شخصية أيما كان قدرها ومقامها ... تزوجت قبل ذلك من النبيل « كازمير دوديڤان » ثم انفصمت عروة ذلك العهد عام ١٨٣٦ بعد أربعة عشر عاما من هذه الزيجة . ويبدو أن الزوجين لم يكونا من التكافؤ والتماثل على ما ينبغى ، مما حملها على أن تغادره مقيما بقصره فى « نوهان » لتعيش فى باريس ، وذلك قبل انفصالهما بخمس سنوات . وفى تلك الحاضرة المائجة ، وتحت سماء تلك المدينة المختالة بمدنيتها الصاخبة ، اعتلت « چورج صاند » ذروة الشهرة فى ميدان القلم ، وجالت فى حلبة الكتابة والأدب جولة أحلتها المكان الأول بين أترابها . أما حياتها الخاصة فقد كانت تتمتع فيها بحرية مطلقة ، حتى وهى فى قيد الزوجية . وقد حمل الينا تاريخ الأدب الفرنسى قصة علاقتها بالشاعر « الفريد دى موسيه Alfred de Musset » الذى رحلت معه الى ايطاليا عام ١٨٣٤ وما لبث هذا الغرام المتوقد أن انطفأت جذوته ، وتبدل الأمر فيه الى ما يشبه البغضاء وحب الانتقام . ولولا أن يخرج بنا القول عما نحن بسبيله فى هذا المصنف لالتمسنا من « ليالى موسيه » وأشعاره التى مزق فيها قلبه مزقا استحالت الى ألفاظ صارخة باكية من الغدر والخداع وسرعة التحول ... لولا ما أسلفناه لوجدنا فى ذلك الأدب ، وفى غيره ، تحليلا لنفسية هذه المرأة التى تركت صرعاها يسقطون الواحد بعد الآخر ، وفى مقدمتهم زوجها الذى كانت تتردد عليه فى « نوهان » دون خجل من استهتارها ، الى أن وقع الانفصال بينهما . وعلى أثر ذلك رحلت بطفليها من

ثمرة هذا الزواج وهما « موريس » و « صولانج » . وقد بدأ تعارفها بشوبان بعد انفصالها بعام .

والروايات متعددة مختلفة فى كيفية هذا التعارف بينهما ، ولكن ما لا خلاف عليه أن الموسيقى كانت هى الطريق السحرى الى قلبها ، ومن ثم أعجبت به ومالت اليه . وتم هذا التعارف بفضل صديقهما الموسيقار « لست » على نحو ما أسلفنا . وهذه الرواية هى التى سجلتها « جورج صاند » نفسها عن لقائها الأول لشوبان .

ومن المحقق أيضا أن هذا التعارف كان قائما فى مارس عام ١٨٣٧ وان لم يكن وثيقا ، حيث لا نجدها فى هـذا التاريخ تكتب اليه مباشرة ، وانما تجعل بينه وبينها صديقهما « لست » وقد كتبت اليه فى الثانى والعشرين من مارس تلح عليه فى أن يزورها مصطحبا معه « شوبان » الى قصر « نوهان » الذى تخلى عنه « دوديفان » لها ولطفليهما .

وهذا العام أعنى ١٨٣٧ كان يبدو منذ أوائله صحيفة مخضبة لذكريات دامية لشوبان وجورج صاند على السواء .

أما هو فقد ورد عليه فى الشهر الأول من ذلك العام نبأ تخلى أسرة « ماريا » عما كانت تهفو اليه أحلامه وتشدو به أنغامه من قران سعيد . وقد تحطم قلبه بفسخ هذه الخطبة وبما قبلها من عهود موثقة ، وعقود مبرمة ، مزقتها يد الدهر التى كانت تقطع كل خيط من الأمل يتعلق به .

وأما هى فلم تكن أحسن حالا ، ولا أنعم بالا . فقد فشلت فى

حياتها الزوجية ، كما لم تسعد فى قصتها الغرامية مع « موسيه » • ولعل لها غير ذلك من الحوادث والقصص ما جرح قلبها ، وجرعها غصة اليأس والفشل مرة ومرة •

وفى ذلك العام ، وعلى تلك الآلام ، التقى القلبان المحطمان ، وتحاب « شوبان » و « جورج صاند » وزاد التقارب بينهما • ورأى كل منهما ألا غنى له عن صاحبه حين ينشد برد العزاء والسلوى • على حد قول القائل : « شبيه الشىء منجذب اليه » • ولقد استمعت « جورج صاند » الى موسيقى « شوبان » فرأت فيها صورة قلبها المحطم ، وقصة فشلها المتكرر • ووجدت آلامها حاضرة بين يديها فى تعبير صادق يؤديه الموسيقار فيسلبها لبها وينزعها من كبريائها ، فاذا بسلطانها مقهور أمام سلطانه • وهو أيضا قد أصبح نهبا للغربة والوحدة ، وخانته حبيبة بعد حبيبة ، وفجع بفسخ خطبة بعد خطبة ، وامتد مرض قلبه الى جسمه ، وألم روحه الى هيكل جسده النحيل • فما أحوجه الى قلب المرأة فى مثل هذه الحال ، على أن تكون فيما يليق بعظمته الفنية على مثل ما كانت عليه « جورج صاند » • ولم يكن القدر ضنينا عليه فى هذه المرة بتقديم العزاء • ولكن •••